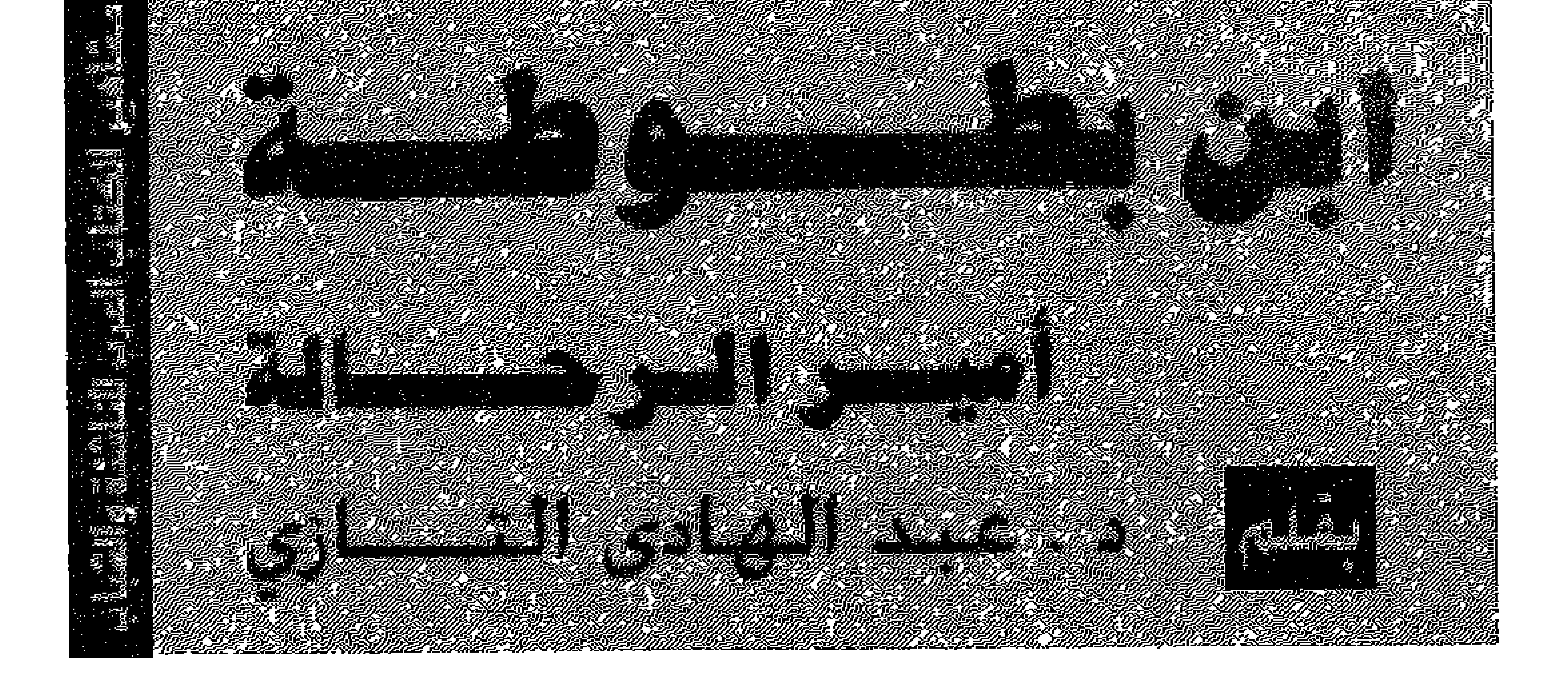


الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الكتاب العرب

للناشئة والشباب

الدار المصرية اللبنانية



16 عبد الخالق ثروت ـ ص . ب 2022 برقيا دار شادو ـ القاهرة ـ ت : 3923525 - 3936743 ـ فاكس : 3909618

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر

تليفون : 3256098 - 3251043

رقم الإيداع : 18625 / 2001

الترقيم الدولي : 7 - 721 - 270 - 977

الطبعة الأولى : شوال 1422 هـ ـ يناير 2002 م

ابن بَطُّوطَة

أميـر الرَّحَّالة

د. عبد الهادى التازى

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

هذه السلسلة تقدم كبار الكتاب والمفكرين ــ قديمًا وحديثًا ـ فى كل بلدان الأمة العربية . . للناشئين والشباب . على اعتبار أن فى حياة كل أمة لحظات فاصلة ، وكُتَّابًا هم ضمير شعوبها . ومن هؤلاء تتحدد معالم عظمة الأمة فى اللحظات الفاصلة من تاريخها .

وهذا هو الدافع الحقيقى وراء إصدار هذه السلسلة . . أن تحتفى بالكتاب والمفكرين الخالدين من أبناء الأمة العربية ، مؤكدة أننا نمتلك القدرة على البقاء بما نملك من قوة معنوية هائلة متمثلة فى مواقف وأعمال هؤلاء الكتاب والمفكرين .

ولا يعنى احتفاؤنا بهؤلاء العظماء من أبناء الأمة العربية أننا نسترجع الحديث عنهم فى حكايات وحواديت ساذجة . . فهذا ما لم نقصده ، إن هدف هذه السلسلة هو أن نقدم للناشئين والشباب العظمة الإنسانية ممثلة فى هؤلاء الكتاب والمفكرين العرب . فنضرب لهم الأمثال من خلال دراسة حياتهم وأعمالهم ومواقفهم ، عسى أن يترسموا خطاهم فى الطريق القويم بما يتحدد أمامهم من معالم ، وما يتضح لهم من دروس .

وعلى هذا فالسلسلة تحرص على أمرين :

١ ـ أن تتوخى فى سيرة المحتفى به مشـوار العظمة وكيف كانت . بمعنى أن تقدم هذه الشعلة المقدسة فى يقين صاحبها ، والجهود المضنية التى بذلها من أجل ذلك . وعندمـا يتحقق لنا ذلك من خـلال الدرس والبحث ؛ فإننا نضع أمام الأجيال قيمة الجهد الإنسانى الجاد ، وكيف تكون نتيجته . . وتلك غـاية فى حـد ذاتها . فأحيانًـا يرى النـاس بريق العظمـة دون الوقوف عند الأسباب التى صنعت هذه العظمة !

٢ ـ أن تتوخى هذه السلسلة فى سيرة الكاتب أو المفكر الذى تتناوله استدعاء شريحة بكاملهـا من تـاريخنا الحضـارى بتفاعـلاتها الاجتماعية والفكـرية والسياسيـة ، تتأملها بالـرصد والدراسـة والتحليل المبسط ، والأسلوب السهل الممتنع . وتلك غـاية أخرى تمكن الأجيـال الجديدة من الـوقوف على مسار حركة الفكر وتطوره فى أمتنا العـربية ، خاصة ونحن فى حاجة إلى تأصيل هذا الفكـر الذى انتصر فى يوم من الأيـام . . لنستأنس به فى خضم التحـديـات التى تـواجهنا فى عـالم اليـوم ، والتى تحتم علينـا أن نتسلح بالعلم والمعرفة .

هذا ما نرجوه ونأمله من إصدار هذه السلسلة . والله الموفق .

« الناشر »

مقدمة

لقد كان لزامًا عليَّ أن أستجيب لرغبة « الدار المصرية اللبنانية » بالقاهرة فى أن أقوم بتقديم هذا الرَّحَّالة المغربى الكبير إلى الشباب والناشئين ، ولاسيما أنها - أى الدار - كانت تهدف إلى إنارة الطريق أمام الشباب الذى يظل ذخيرتنا للمستقبل . ولقد اعتبرت ذلك الاهتمام من الدار تطلعًا إلى غد أفضل ، وهو بالتالى يُعَبِّرُ عن حضارة ، ويترجم عن رغبة شريفة تراود رجال الفكر منَّا ، ممن أصبحوا يشعرون بضرورة ربط الشباب بماضيه ؛ وشدِّه إلى الرجال الأفذاذ الذين صنعوا ذلك الماضى . وإننا عندما نهتم بمثل أولئك الرجال فإننا لا نقصد إلى تشريح جثث هامدة فارقت الحياة منذ زمن بعيد ، ولكن القصد من ذلك هو الاطلاع على أحوالهم ، والوقوف أمام أعمالهم للتأسِّى بهم ، والاقتداء بأساليبهم فى تطلعهم للمعرفة ، ومغامراتهم من أجل الوصول إلى الحقيقة ، بل وفى تفانيهم من أجل أداء رسالتهم ، برغم ما كان يحيط بهم من مصاعب ومتاعب وظروف وصروف .

وهكذا رأيت من واجبى - كما قلت - أن أقدم إلى أبنائنا وبناتنا من الأجيال الشابة هذا الرجل العظيم الذى وضع خريطة للعالم الإسلامى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وخاصة أن هذا القرن كان قرن ركود بالنسبة للتأليف المبدع .

هذا الرجل يحمـــل اسم «ابن بَطُّوطَة» . وأسرة «ابن بطـوطة» هى أسـرة علم وقضاء . . وكانت تعيش فى شمال المغرب الأقصى فى « طنجة » بالذات ، كما يوجـد بعض أفرادها فى أنـدلس الأمس . وقد انتسبوا جميعًـا إلى جَـدَّة لهم فاضلة كانت تتمتع بالذكر الحسن والصيت الطيب ، وكان اسمها أصلاً «فاطمة» ، وبما أن هذا الاسم ـ « فاطمـة » ـ اسم عزيز على المسلمين مشرقًا ومغربًا ، فقد تفننوا فى النطق به حسبما كـانوا يريدون ، فقد نطق به بعضهم «فطيمـو» ، و « فاطـو » ،و « بطـو » ، و « فطـومة » ، على نحـو مـا فعل الشرقيون عندما اختصروا هذا الاسم إلى « فاطم » ، وربما إلى «بَطَّـة » ، التى تحولت عندنا فى المغرب إلى « بَطُّـوطَـة » .

هذا الرجل الجليل دخل التاريـخ من باب رحلته العظيمة التى أصبحت مرجعًا مهمًّـا للجغرافيين والمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا ، والمهتمين بالحياة اللغوية والاقتصاديـة والدينية والسياسية . ولقد أصبحت الـرحلة اليوم بعد دراستها واستيعابها وتتبع مضامينها وشخصياتها الإسلامية ، إلى جانب طول فترتها التى امتدت إلى ما يقرب من ثلاثين سنـة ، واتساع رقعة مساحتها التى تجاوزت إفريقيـا إلى آسيا وأوروبا ، وتنـوع معلومـاتها ومصداقية أخبـارها ، أقـول : أصبحت نتيجـة لكل ذلك تُنْعَت بأنها أهم وأعظم رحلـة فى تاريخ البشريـة جمعاء . ومن ثَـمَّ لفتت أنظـار أوروبا قبل قـرن ونصف إلى مختلف اللغات : إلى الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية ، والبرتغالية ، والإسبانية ، والتركية ، والهندية ، إلى آخر هذه القائمة الطويلة من لغات تلك الدول التى وجدت فى الرحلة ما يكمل تاريخها ، ويتحدث عن مواقعها .

لقـد نُعِتَ هـذا الرَّحَّـالة فى زمن مضى ، من قِبَـل الذين خالطوه ، وفى مقدمتهم « ابن جُـزَىّ » ، نعتوه بأنه « رحالة العرب والعجم » ، كما نعتوه فى

عصرنا اليـوم ـ وخاصـة من طرف الـذين تعمقوا فى بحثه ودراستـه فى أوروبا وأمريكا ـ بأنه « أمير الرحالة » .

والـلافت للنظر فى هـذا الـرجل العبقـرى أنه لم يكن مجرد رحـالـة يقص مشاهداته للآخرين . ولكنه كـان هو نفسه الذى يكتب مذكراته ، ويضبط ألفاظها ، حيـث رأيناه يأسف أحيانًا ويتحسر لضيـاع جزازات منها . . ولا عجب فى ذلك ، فلقد كان «ابن بطـوطة» عالـمًـا مَارَسَ مهنـة القضاء وهو فى مقتبل عمره وهـو بديار الهنـد وجـزر مـالديف . كما أنه كان شـاعرًا نظم الشعر ، وقرأ الحديث الشريف وفسّـره . . ومن أجل كل ذلك ، فإننا أمام شخصية واسعـة المعرفة ، عميقـة الغَـوْر ، رشحتهـا صفاتها ومزايـاها لكى يكـون ضمـن أعضـاء المجلس العلمى الـذى أنشأه فى مدينـة «فاس» «أبـو عنـان» ، السلطان المعروف ، والذى كـان يضم علْية القوم وكبارهم فى بلاد المغرب العربى فى العصر الوسيط .

د. عبد الهادى التازى

حياة ابن بطُّوطَة

سيكفينا هـذا الرجل أمـر التعريف بنفسـه من خـلال ما حكاه هـو عن سيرته الذاتية ، وهكذا فإننا لا نجد عنـه شيئًا سوى ما ورد عن (لسان الدين ابن الخطيب» (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ ـ ١٣٧٥ م) فى كتـابه « الإحـاطة فى أخبار غـرناطـة) من معلومـاتٍ جدّ محدودة ، على خلاف صنيعـه مع «ابن جُبير» الـذى ينتمى لبلـدتـه ، والـذى خصص لـه «لسـانُ الـدّين» عشر صفحات كاملة !! وسوى ما ورد عن «ابن خلدون» (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦م) فى مقدمته ، وما ورد عن «ابن حجر» (ت ٨٥٢ هـ = ١٤٤٨م) فى (الدرر الكامنة) من معلوماتٍ أضافت بعض العناصر المفيدة على نحو ما قرأناه عن « التمجروتى » (ت ٩٩٧ هـ = ١٥٨٩ م) فى (النفحة المسكية)، «والمقّرى» (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م) فى (نفح الطيب) .

لكن ما دوَّنه فى رحلته كان كافيًا وحده ليعطى فكرةً مدققة عن الرجل من نشأته بطنجـة إلى أن استقبله بفاس السلطان «أبـو عنان» ، وإلى أن صحِب رَكْـبَـهُ وهو عائد من مراكش يحتمل شلْو أبيه . . . فكرة مدققة عن صفاته ، وعن شخصيته ، وعن إبائه ، وعن حالتـه الاجتماعية . وتبقى بعد هذا نحو ثلاث عشرة سنـةً من حياة الرجل ظلـت تفاصيلها غـائبةً عنا لم نعـرف عنها شيئًا ، عن أهلـه وعن نسله ، سـوى أنه يـزاول القضاء فى إقليم تـامسنا ،

الذى يُعَــدُّ من أوسع وأغنى الأقاليم المغربية فى مملكـة فاس . . حيث قد خفت صوته باختفاء ولىِّ نعمته السلطان «أبى عنان » .

و«ابن بطوطة» هو : أبو عبد اللـه محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمـد بن إبراهيم بن يوسف اللّواتى الطنجى ، الملقب فى المشرق بشمس الدّين ، والمكنَّى عنـدى بأبى أحمد ، لوجـود ولد لـه يحمل هذا الاسـم . . . ومعلوم أن (لـواتة) قبيلة واسعة الانتشـار فى مصر ، يؤكد «المقـريزى» أنها عـربيـة .

وُلِد بطنجة يوم الاثنين ١٧ من رجب سنة ٧٠٣ هـ = ٢٤ من فبراير سنة ١٣٠٤م ، ويبدو أن الأسرة تنسب إلى سيـدةٍ كانت تحمل اسم « فـاطمة » ـ وهناك عادةٌ معروفة مـن قـديم تنسب الناس إلى أمهـاتهم ـ ومن ثَـمَّ تتحـول فاطمـة فى المشـرق ـ تَدَلُّلاً ـ إلى بَطة ، ونحن نعرف عن «ابن بَطة العُكْبَرى» (ت ٣٨٧ هـ) ، وتسمى بطَّة فى المغرب بطُّوطة ، كسفُّودة ، على ما فى «تاج العروس» لـ «الزَّبيدى» (فصل الباء من باب الطاء) .

وبيت « ابن بطـوطـة» معـروف على أنــه بيت علْم وقضـاء . . ونعـرف أن «طنجة» نفسَها كانت مرفأً دوليًّا مهمًّـا يتوفر على كلّ مقومات الحضارة . وقد عرفنا عن استقبالها للشعراء ، أمثال «أبى الحسن الحُصْـرى» ، صاحب القصيدة التى مطلعهـا : « يا ليل الصَّـبُّ مَتَـى غَـدُه » ، كما عـرفنا عن «ابن سمحون اللـواتى الطنجى» الذى رحل إلى المشرق وعاد لطنجـة ومات بها ، وقـد وقفنا فى البرتغال على نص ملْكيةٍ لبعض مخطوطات « قضاة قرطبة» لـ «الخشنى » ، وهو هكذا : « ملكه محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن اللّواتى ، الشهير فى طنجـة بابن بطـوطـة » . وسـنقرأ حـديث «ابن بطوطة» ، وهـو

فى رُنْـدَة ، عن ابن عمـه «أبى القاسم محمد بن يحيى» قـاضى المدينة . . كما نعـرف عـــن أســرة «البطـوطى» التى وضـع أحـد أفــرادها بفـاس قطعـة أسطرلابٍ فائقة الدقـة .

وبعد عودة «ابن بطـوطة» إلى المغرب ، وبعد أن حَـدَّثَ النـاسَ برحلته ، تَـنَـاجَى بعضُ معاصريـه بتكذيبـه! وبعد أن أصبح من جلسـاء السلطان «أبى عنان» ، أصدر السلطـان أمرًا لكاتبه «ابن جُــزَىّ» بتدوين رحلة «ابن بطُّوطة» ، قبل أن يتقلَّد هذا الأخير منصب قاضى إقليم « تامسنا » .

وقد وجـدنا فى (نفـاضة الجِراب) لـ «لسـان الدين بن الخطيب» رسـالةً موجّهة من هذا إلى القاضى «ابن بطوطة» ، وكان «ابن الخطيب» قـرَّر عندما التجأ إلى المغرب (فى عام ٧٠٦ هـ = ١٣٥٩ م) أن يستثمـر أموالَه فى منطقة نفوذ «ابن بطـوطة» ، وكانت « تـامسنا » تـابعة لمملكة فـاس ـ على ما يقـوله «الحسن بن الوزان» .

وإذا كـان مترجموه أهملوا الحديـث عن ظروف وفـاتـه ، فإن الحافظ «ابن حجر» سالف الذكر فى (الدرر الكـامنة) يفيد أن «ابن بطوطة» بقى إلى سنة سبعين ، وأدركتـه وفاتـه وهـو متـولٍ للقضـاء ، يعـنى حتى عهد السلطان «عبد العزيز بن أبى الحسن» أخى السلطـان «أبى عنان» ، مما يعنى أنَّ أجله أدركـه بتامسنـا ، التى كـانت عاصمتُهـا آنـذاك «أنْفا» ، وليس بفـاس ولا بطنجة . ولله در مـولانا «جلال الدّين الـرومى» (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) عندما يقـول : «حينما نموت لا تبحثوا عن قبورنـا فى التُّـراب ، ولكن ابحثوا عنا فى قلوب الناس » .

لقد كان رَحْـلُـهُ دائمًـا على استعداد ، وهو لا يفتأ متنقلاً ، باحثًا عمَّـا

يضمن له الزاد فى الحِلِّ والترحال . . . وقد كان يصدق عليه قول «ابن رُزيق البغدادى» فى قصيدته :

ما آبَ من سَفَرٍ إلا وأزعجه
رَأْىٌ إلى سفرٍ بالعزم يجمعه
كأنّما هو من حِلٍّ ومرتحل
موكّل بفَضاء الله يذرعه !
إذا الزمان أراه بالرحيل غِنى
ولو إلى السِّنْدِ أضْحَى وهو يُزمعه !!

لقد قام «ابن بطوطة» برحلاته العديدة التى كان يتعرض فيها أحيانًا لسائر أنواع الامتحان، كما تعرض للخطر فى عددٍ من الحالات ، حتى عندما قام بزيارة الأندلس وبلاد السودان ، لكنه نجا من جميع تلك الأهوال ، فكان لسان حاله ينشد قول «الشريف الإدريسى» :

دعْنى أَجُلْ ما بدتْ لى سفينةٌ أو مَطِيَّةْ
لا بدّ يقطع سَيْرِى أُمنيةٌ أو مَنِيّةْ !!

إن الذين يسمحون لأنفسهم بتحْجيم «ابن بطوطة» ، والادعاء بأنه كان محدودَ الثقافة ، هم فى الحقيقة بعيدون عن الحقيقة . . . ولعل بعضهم ضُلِّلَ بما قرأه عن تكليف السلطان «أبى عنان» للكاتب «ابن جُزَىّ» بترتيب الرحلة ، حيث وجد فى ذلك ما يعبر - ربّما - عن « عجز » ابن بطوطة عن القيام بالمهمة . . . ! وهذا خطأ بَيِّن ، تكشف لنا عنه أولاً الصفة التى رَشَّحت «ابنَ جُزَى» للقيام بهذا العمل ، والتى أشار إليها «المقّرى» فى

(النفح) بأنـه ـ أى «ابن جُـزَىّ» ـ «إنْ كتب أَرْبَى على «ابن مقـلـة» بخطّـه . . . »، وثانيًا: ما أضفاه « ابن جُـزَىّ » نفسُـه فى المقدمة على «ابن بطوطة» من كل الأوصاف التى تؤكد عن عُمق معارف الرحالة ، فهو « الشيخ ، وهو الفقيـه ، وهو الثقـة ، وهـو الصدوق ، وهـو الـذى باحَثَ فِـرَق الأمم ، وسَـبَـر سِيرَ العـرب والعجم، ولم أتعرض ـ كما يقول «ابن جُـزَىّ » ـ لِبحثٍ عن حقيقة ما قال ، لأنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك . . . ! » .

ونـريـد أن نقول ، ونحن نقـف إلى جانب مـن يقتنعون بـالمركـز العلمى المرموق للرحالة المغربى ، نقول : إن القرار الذى اتخذه السلطان «أبو عنان» بالإعـلان عن مصداقيـة الرحلـة وأهميتها لم يكن قـرارًا ارتجاليًّا أو عـاطفيًّا ، ولكنه كان وليـد أَخْـذِ رَأْىِ أعضاء المجلس العلمى ، الـذى اعتاد السلطان أن يركن إليه كلّ مطلع شمس . . ذلك المجلس الذى كـان بمثابة أكاديميةٍ حقيقية يلجأ إليها العـاهل عند الحاجة ، وقد قرأنـا فيما سجله الكاتب «ابن جُـزَىّ » فى مقدمة الرحلة أنه : « لا تقع فى مجلس أبى عنان مسألة علمية فى أىّ علم كـان ، إلا حل مشكلهـا ، وبـاحَثَ فى دقـائقهـا ، واستخـرج غـوامضها، واستـدرك على علماء مجلسه مـا فاتـه من مغلقاتها . . فكـانـت مجالسه لا تخلو من مباحثات ومناظرات » .

وقـد ذكـر العلامـة «أبـو زيـد عبـد الرحمٰن الجاديـرى» (ت ٩٣٨هـ = ١٥٣٤م) نقلاً عن الـرئيس «أبى الوليـد إسماعيل بن الأحمر» (ت ٨٠٧هـ = ١٤٠٥م) فى شرحه لقول «البوصيرى» :

لعـلَّ رحمةَ رَبِّـى حين يَقْسِمُهَـــــا تـأْتى علَى حَسَـب العِصْيَـانِ فى القِسَمِ

ذكـر مـا يؤكـد أن «ابن بطـوطـة» كـان معدودًا فى صـدر أعضـاء ذلك

«المجلس الأكـاديمى » . وقد وقع الكـلام بين يدى السلطـان أمير المؤمنين «أبى عنـان» فى مقعد ملكه مـن المدينة البيضاء مـن حضرة فاس ، بمحضر الفقهـاء والعلماء والأساتـذة والقضاة والشرفـاء والخطبـاء وأصحاب العلـوم . . . وأخـذ الرئيس «أبـو الـوليد» يعـددهم واحـدًا واحدًا ، إلى أن قـال : «وشيخنـا الفقيه القـاضى الخطيب الحاج ، الكثير الجولـة بالمشرق والمغـرب وجميع البلاد ، محمد بن بطوطة الطنجى ، العارف بالتاريخ . . » .

ومعنى هـذا أن الرحـالة المغربـى كان معـدودًا فى صدر رجـالات الفكر والعلم والدولة جميعًا .

وللمتتبع لغضون الـرحلة أن يقف بنفسه عند الخطـوات الأولى للرجل ، وهو يـودّع طرابلس ، عندمـا تقدم على سائر رفـاقه وفَـرَض نفسـه على بقية أعضاء الركب .

وإن «ابن بطوطة» ، وهـو لا يزال فى بداية طريقه فى الإسكنـدرية ، أخذ عن الشيخ «يـاقوت العـرشى» تلميـذ «أبى العبـاس المرسى» ، فهو شـاذلى بالـواسطة ، وقـد حصل فى دمشق على نحـو مـن ثلاث عشـرة إجـازة ، وفيمن أجـازوه «أم عبـد اللـه زينب بنت الكمال المقـدسية» ، ولقـد كـان حريصًا على أن يـذكر أسماء الذين أجـازوه فى أرض الشـام ، وهـذا إنْ دل على شـىء فإنمـا يـدل على « انتسـاب » الـرجل إلى بيـت العلم والفقـه والحديث .

ولا بد أن نستمع إلى الانتقاد المر الذى وجهه الرحالةُ العالِمُ لخطيبِ البصرة الذى لم يحترم قـواعد النحو ، التى إنما عـرفت ـ أى قواعـد النحو ـ ازدهارها ورواجها بين البصرة والكوفة .

ولْنتتبع زيـارته لبغـداد حيث نجده بـالمدرسة المستنصريـة يحضر مجالس الإمـام الشيخ «أبى حفص القزوينى» ، الـذى كـان يتناول بـالدرس مسنـد «الدَّارمى» . . . لقـد كان حاضرًا فى مثل هـذه المشاهـد بذاكرتـه وبحسه ، يعترض على ما يسمعـه أحيانًا إذا لم يقتنع ، ويصحح ما يـرى أن غيره جافَى فيه الصواب .

وهو فى بـلاد فارس اغتنم الفـرصة لاستجماع حصيلـة كبرى من المعارف والاتصـال بأكبر عدد مـن رجالات الحديث والفقـه والتصـوف . وقد كـان يعـرف كيف يتحبب إلى النـاس ويتقرب إليهم بما أُوتِيـهِ ــ هو نفسـه ــ من خصال العلماء ، وفضائل الفقهـاء . . . وهكذا وجدناه يضيـف إلى إجازاته فى دمشق إجازاتٍ أخرى من بعض رجال العلم والفضل فى « أصفهان » .

وأكثـر من هذا ، استمعنـا إليه يخبرنـا عن تأليفٍ له جـديد ، غير هـذه الرحلة ، وهو خبر طريف ، ويتعلق الأمر بتصنيفٍ طَلَب منه أحد الملوك فى آسيا الصغرى (سلطان بِرْكى) أن يؤلفه له حول الحديث الشريف .

وما من شك فى أن المرء لا يجرؤ على حَـمْـل القلم للتدوين فى مـوضوعٍ كهذا دون أنْ يكون متوفـرًا على زادٍ من العلم كبير .

وقد قرأنا بعضًا من قصيدته اللاَّمية فى مدح السلطان وهو بالهند :

فلـو أن فوق الشمـس للمجد رتبـةً   لكُنتَ لأعـلاهـا إمـامًـا مؤهَّـلا
فأنتَ الإمـامُ الماجـدُ الأوحدُ الـذى   سَجاياه حَـتْـمًـا أن يقول ويفعلا !

وَمِـمَّـا يـدل على مكانـة الرجل العلميـة ، ما كنـا نتحسسه من خـلال مذكراتـه ، مما كان يعَـبِّـر فعـلاً على أنه أطروفة من أطاريف الـزمان ، وأنّه

ليس إِمَّـعَـةً يـردد ما قـاله الآخـرون دون تمحيص . ولأضرب مثلاً بما ينقلـه أحيانًـا عن «ابن جبير» من معلومات ، فهــو عنـد حـديثـه مثـلاً عن فوائد مستغلات جـامع دمشـق فى كلّ سنة ، «يقـدر ذلك بنحـو خمسة وعشرين أَلْــفَ دينــارٍ ذهبى مــن سكــة بنى مـرين » . . وهكـذا نجــده يحــول تقـديْرات «ابن جبيـر» البالغة خمسة عشـر ألـف دينـار مـن سكة بنى عبد المؤمــن . . . وقـد فعــل ذلك « لتيْـويــم » المعلـومــات ، أى جعلـهــا مواكبــة لأيـامـه وعصـره .

وهو إذ يستأنس بــ «ابن جبير» أيضًا ، نراه لا يردد ما أفـاده سلفه من أن خطبة الجمعة تتضمن الـدعاء للخليفة . وخلافًا لـذلك نجده يتحدث عن الـدعـاء لملك مصر ، لأنَّ اليـوم غير الأمس ، والحكـامَ الحاليين ليسـوا هُم الحكامَ السابقين ! !

وإذا كان «ابن الخطيب» فى (الإحاطة) نَسَبَ إليـه المعرفة بالطب ، فإنه مُصيب فى ذلك ، نظرًا لما احتوته الـرحلة من دلالات وشهادات . . . و«ابن بطوطـة» هو الـذى لاَحَظَ أنَّ أهل الهند لا يجعلون بيت المال عـاصبًا عنـدما تستكمل حصص الوارثين، على عكس ما يوجد عند المالكية الذين يعتبرون بيت المال عاصبًا عنـد فقدان الوارث ، وهو ما كان يعتمـده المغرب إلى عهد قـريب .

وحديث «ابن بطوطة» عن « التعزير » [1] عند الشافعية ، وأنه لا يتجاوز الحد . فى حين نجد أن التعزير عند المالكية غير محدد ، وأن للإمام أن يجتهد فيه حسبما يراه ولو تجاوز الحدّ .

---

(١) التَّـعْـزِير : اللَّـومُ والتأديب بما دون الحَـدِّ ، كتأديب مَنْ شَتَمَ بغير قذفٍ .

وقـد رأينـاه بين الفينـة والأخـرى يتحـدث عن أن هـذا الحكم يجرى على مذهب الشـافعية ، وذلك يجرى على مذهـب الإمام «مالك» ، الأمـر الذى يجعل رحلته أيضًا مصدرًا من مصادر الفقـه الإسلامى . وقد سمعناه يقول ـ وقد عرضت عليه وظيفة سياسية مهمة : « إن القضاء والمشيخة شغله وشغل آبـائه . . . » . وقـد تحدث فعـلاً عن فقيـه جليل ، هـو «أبـو الحسن على الأُنجرى» ، الذى كـان يتردد على والد «ابن بطوطة» بطنجـة ، والتى عرفت مجالس أمثال الشيخ «أبى سعيد » .

وما بـالك بسائح يلْقى مكـانةً رفيعـةً عند الحدود المصريـة ، ويستضيفه «أستاذ دار » الذى يُعهـد إليه عادة بتَرَصُّد عِلْيـة القوم وأداء فروض الاحترام لهم ؟!

وما بالك بفقيه لم يتردد فى استنكار ركوب الشيخ « هود » على محفّة تحملها أكتاف فتيانه وكأنهم الحيوانات عِوَض أن يركب متون الخيل التى كانت تمشى مع الموكب مجنوبة ؟!

ولقد كانت آخـر وظيفـة لـه ـ كما قلنا ـ أن كان قاضيًا فى « أنفا » عاصمة « تامسنا » التى احتضنت عددًا كبيرًا من رجال العلم والمعـرفة مِـمَّـنْ ترجمت لهم كتب التـاريخ ، من أمثال «أبى الحسن بن الـرقاص» الـذى كان يُقـرئ بمدرسة « أنفا » التى بناها السلطان «أبو عنان» بالجامع الأعظم .

وإذا كان «ابن بطـوطة» إنما اشتهر بالـرحلة التى توجد بين أيـدينا ، فإن صاحب كتـاب (دليل مؤرخ المغرب الأقصى) يـذكر أن لابن بطوطـة تأليفًا آخـر يحمل اسم (الوسيط فى أخبـار من حَلَّ تـمَنْطيـط) ، تكلم فيـه على رجال المدينـة المذكورة التى تقع فى إقليم « توات » ، وكانت آهلـةً بالعلم فى

القرن السـادس ، والقرن السابع الهجـرى ، ويقع التأليف فى مجلد ضخم ، على ما أخبره به بعض علماء الإقليم .

وقد كان مما لفت النظر فى الرحلة ؛ أنَّ «ابن بطوطة» ـ بالرغم مِـمَّـا تقلب فيه من وظـائف ، وما مـرّ به من ظـروف ـ لم ينسَ المغرب ، الـذى ظل أمام مخيلته وبين سمعه وبصره .

وحتى نعـرف درجـة الحسِّ الـوطنى للرجل ؛ لا بـد أن نـلاحظ تصيّـده الفرصة لـذكر المغرب ، فهو يفيدنا أن المغـاربة شاركوا ضد هجـوم القرامطة على الكعبة ، وهى الحقيقة التى نجد لها صدى فى المصادر القديمة للتَّـاريخ الدّولى للمغرب .

ولم ينس أن يقـارن بين « الصقــورة » فى المغـرب وبين « سِيــرْبِيدار » فى فارس . . . ولم ينس أن يقـارن بين نظام « الفيـلاّت » فى الصين ومثيلاتها فى «سجلماسـة» ، بل وبين قطع الأسطـول والأجفــان بـالمغـرب وعـددهـا فى الصين . . . سـواء منهـا الغَـزْوِيَّـة أو السَّفَــرِيَّـة ، أو الحربيـة والتجـاريـة بالمصطلح الحديث .

ولقد عَلِقَت بمخيلتـه صور الأودية الكبرى بالمغـرب ، فهو يقارن وادى سَلاَ ، بنهر مدينة إسطنبول . . . ولا يفوته أن يذكر بأنه يدّخر مذكراته التى يكتبهـا ليفيد بها مـواطنيـه بالمغـرب . . . وأيضًا عنـد ذكـر الطيور ، وعنـد حضور الأسماك ، وعنـد رؤيته للأوانى الخزفيـة التى تُقَـدَّمُ إليـه ، لا بد أن يعتــزَّ بـالخزف الــذى تصنعـه الأيـادى المغـربيــة . . . وحتى فى شكل الخصومات والمرافعات نجده يقارن بين شكلها ونوعها فى بلاده الأصلية وفى الأماكن التى كان يتجول فيها .

ويُلاحظ أن الرجل كان فى مستوى مـا تنعم به بلاده من ذكرٍ جميل ، ولا بد أن نحضر معه ذاتَ يـوم خروجه للأسواق ليقتنى الملابس المناسبـة لرحلة صيدٍ دعـاه إليها السلطان ، فقـد كان يريـد « أن يُظهر القوة والهمـة » . لقد كان حريصًا على أن يمثل بلاده أحسن تمثيل ، إذْ كان عظيم الاعتزاز بهُويته المغربية فى البلاط الهنـدى ، وهو الأمر الذى لا يزال مثقفو الهنـد يذكرونه إلى اليوم . لقد كان يعلم أن بـلاده ـ فى ذلك العهـد ـ كـانت على وضـع ممتاز ، وأحسن على كلّ حـال من وضع تلك الجهـات ، ولـذلك فإنـه كـان يجيب عندما يُسأل عن أصله : بأنـه ينتسب إلى بلد أصيلٍ أثيلٍ . وفى هذا الصدد لا بد أن نلفت النظـر إلى نوعٍ من المقـارنات الطـريفة ، والـدالة على الحِسِّ الاقتصـادى والتجارى الـذى كان يتـوفـر عليه ، والـذى يعبر عن شموليـة شخصيتـه واكتمالها : قضية تتبُّعـه لـلأسعـار ، وتتبعه للمكـاييل والمعـايير والموازين ، وقيمة العُملات ، حتى لكأنك مصحـوبٌ بجريدةٍ تُطلعك على أسعـار مـا يجرى فى السـوق . وهكذا لم يكـن الرحـالـة رجلَ فقـهٍ وأحكـامٍ وأوراق ، ولكنه رجلٌ مطلع على كل شىء .

فقد بـدا مهتمًّـا بقضـايا الصرف والمقـارنة بين العُملـة فى المغرب وغيره ، عنـدما كـان بمصـر ، والبصـرة ، وتُركيـا ، والهند . . وكذلك المقـارنة بين الرطـل بالمغـرب ، والمـنّ فى الجهـات الأخـرى ، والأوقيـة ، والـدينـار المغربى ، وما تَعـرف عليه هناك مما سماه « التَّـنْكة » . . . ولم يَفُتْـهُ ، وهو يتحدث عن دُور ضَـرْب السِّكَّة فى الصّين ، أن يـذكر دُور السِّكَّـة فى بلاده المغرب . . . كما أن أسعـار الخيول هناك غيرها فى المغـرب . . . وإن أسعار الفِراء فى أرض الظلمة تـرتفع إلى مبلغٍ هائل لا يتصوره شخصٌ نشأ فى أرضٍ لا ترتدى الفراء .

وقد رأيناه أحيانًا يربط بين المعلومات المتعلقة بآسيا والمعلومات المتصلة بإفريقيا السوداء . . . ومن هنا اعتُبرت الرحلة فى العصر الوسيط دليلاً تجاريًّا للذين تهمهم الدراسات الاقتصادية على ذلك العهد على ما أشرنا إليه .

ومن الملاحظ أن الرجل كان يتأقلم بسرعةٍ زائدةٍ ، فهو يتعلم اللُّغة التى يتكلم بها القوم الذين ينزل بساحتهم . . . وقد بدأ يفهم اللغة الفارسية قبل أن يتعلم التركية ، لأن الفارسية كانت منتشرة فى المنطقة كلّها ، حتَّى فى بلاد الصِّين ، ويكتب اللّغتين بحروف عربية على ما كان عليه الحال . . .

وحتى إذا لم يحسن الكلام باللسان ؛ فإن أُذُنَيْهِ تلتقطان ما يصل إليهما من جُمَلٍ وكلمات ، ومن هنا وجدناه يردد بعض الكلمات التى تطرق سمعه بالفارسية والتركية .

وفى سائر الحالات ؛ فإنه لم يكن يشعر بمركَّب نقصٍ وهو يستعين بترجمانٍ ينقل عنه ما يريد أن يقول ، وفى هذا الصدد ساق بعض النكت التى وقعت له مع بعض التراجمة من الذين يدّعون أنهم يحسنون اللغة !

ومن تأقلمه وجدناه يتناول « التنبول »[1] منذ وصوله إلى دمشق ، وأثناء مقامه بمكة المكرمة ، وبإفريقيا الشرقية ، وطول مقامه بالهند . . . إن سائر الأشياء كانت بالنسبة إليه مقبولة ما دامت ترضى مَن يوجد حواليه ، شريطة ألّاَ تخالف مبادئه .

ولم يفت «ابن بطوطة» أن يتعرف على جنسيات السفن التى كان يمتطيها

---

(١) التَّنْبُول : أَكْلَة شامية ، وتسمى أيضًا : التَّبُّول أو التَّبُّولة .

للقيام بـرحلته ، بل لم يفته أن يشيـد بمن يستحق الإشادة إنصافًـا وعدلاً ، ويندد بمن كان سلوكه لا يُرتَضَى ، لا فرق عنده بين مسلم ونصرانى ، على نحو مـا كان يفعله الـرَّحَّـالةُ «ابن جبير» ، والـرَّحالة «أبو حامـد الأندلسى الغرناطى» . . . ولقد أخذنا فكرة عـن الحركة البحرية على عهده ، كما عرفنا عن الأساطيل التجـارية التى كـانت لها الهيمنة على ذلك العهد ، فقـد كان يتنقل مع السفن الجنْوية والصّينية واليمنية والعُمانية والقطلانية . . .

ومن الملاحظ أنه ـ أى «ابن بطوطة» ـ لم يتحدث ـ وهو عائد إلى المغرب ـ عن السفن أو المراكب المغربية ، مـع العلم أن السلطان «أبا الحسن المرينى» كان فى تونس يتـوفر على عددٍ من قطع الأسطول المغـربى ، ولكنه ـ أى «ابن بطوطـة» ـ فضَّلَ أن يعـود ، كما نعلم ، عن طريـق أحد المراكب القطـلانية حتَّى لا يُحرج أحدًا بمطلب . . . !

والحديث عن المراكب يسلمنا إلى الحديث عن الريـاح الطيبة وتحكّمها فى مواعيد السفر ، وهذا موضوع من الأهمية بمكان ، وقد أصبح «ابن بطوطة» من العارفين بـالرياح وما يلقـاه السائر فى الصحراء أو الـراكب فى البحر من آثارها .

وقد كـوّن لديـه الوضع الاجتماعى للمـرأة ومركـزها عند الأمـم التى زارها أفكـارًا لا تخلـو من إطراف وإتحاف ، وقـد تحدث عن النسـاء المتجمـلات المتعطرات فى مكة . . .

إذا قـــامتـــا تضـــوَّعَ المسك منهما نسيمَ الصَّبا جـاءت بريّـا القِرنفل !

وتحدث عن عفـة المرأة وشفقتها وهـو فى خراسـان ، كما تحدث عما تبلغه المرأة من مكـانةٍ سـاميـةٍ فى بلاد الترك والتتر ، حتَّى أن القـرارات لا تُصبح

نافـذةً إلا إذا صدرتْ عن أمـر الخواتين إلى جانب السـلاطين ! ! وحتّى بلاد السودان والصحراء عندما تتمتع السيـدة بحريتها فى التعامل الشريف . . . وعندما تتميز باستظهار القرآن فى «هِنَوْر» من بلاد الهند !

إنَّ الرحلة مع «ابن بطوطة» فى عـالم المرأة يجعلك تشعر بأن الرجل نموذج للصراحـة والبراءة معًـا ، فهـو رجلٌ مقـروء مفتـوح ، وهـو يُسَمِّى الأشيـاء بمسمّياتها بدون لـفٍّ ولا دوران ، فكان يعبر بذاك عن قوة شخصيـةٍ عندما يحكى عمّـا تُـخفيـه مكامِنـه . . . لم يجد أىّ حرج فى الحديث عن الخصومة التى شبَّت بينه وبين صهره لزوجتـه الأولى الصفاقسيّة . . . ولم يجدْ ما يمنعه لكى يقترح تـوقيف ركب الحاج فى الجبـل الأخضر حتى يحتفل بعُـرسـه على سيدة فاسية كانت ترافق والدها إلى مكة . . . !

ولم تكن هذه (الفاسية) هى الثانية والأخيرة فى حلقات السلسلة الطويلة لزوجـاته التى قـد تكون بدأت من طنجـة ! فقد تزوج بـدمشق عند زيـارته الأولى حفيدةً لمكنـاسى كـان مقيمًـا هناك ، وقـد عرفنـا من أسماء زوجـاته الأسيويـات « مباركة » و « الحور نسب » ، أما الـلاتى لم نعرف عن اسمهن فعددهن كثير وكثير .

ويتأكد لدينا أن قلَّة السِّـرَاج الذى يساعد على السَّمر هو الذى كان وراء الرحـالة المغـربى فى البحث عمن تُعـوضـه عن الحـديث والسـراج ! وكما سنرى فـإنه لم يشعـر بأى خجـلٍ فى المقارنة بين هـذه أو تلك ، ليس فقـط مـن حيث الأخـلاق والسلوك والعِشْـرَة ، ولكن من حيث إرضاء الـرغبات الجنسية كذلك !

ولم ينسَ «ابن بطـوطـة» فى كل منـاسبـة أن يهتم بكلّ مـا يقـوى البـاءة

ويساعـد على المضاجعـة !! فهو يتحدث دومًـا عن الوصفـات الطبّية التى تقوّى الظهر، ولا شك أن مثل هـذه الشهادات مِـمَّـا يزيد فى صـدق المقولة السائرة بأن العرب يتميّزون عن غيرهم فيما يتصل بهذه الحقول !!

وفى هـذا الصـدد أيضًا لم يغفل «ابن بطـوطـة» عن التّنـويه بـالسّيـدات الـمَهْرَتِيّات (Les mahrattes) اللاَّتى « كان لهـنَّ من طيب الخلوة والمعرفة بحركـات الجمـاع مـا ليس لغيـرهن » . وقـد شغله أمـر اهتمام السلطان بالملكة «طايطوغلى» وحظـوتها عنده دون سائر الخواتين ، حتى اهتدى للسرّ الذى حاول أن يصل إلى حقيقته !!

ولا شك أن هـذا الحديث يتبعـه الحديث عن الذّريـة التى خلَّفهـا «ابن بطوطة» فى تلـك الجهات ، ومن غير أن نعتبر أن هذا مـمَّـا يـدخل فى إطار حياتـه الخاصة كما يقـولون اليوم . فإن مـا عرفنـاه من تلك الذريـة هو اسم «أحمد» الذى تركه حيًّـا بالهند عند الأمير «غياث الدّين» ، والذى قال عنه : إنه لم يعرف ما فعل الله به ! فى حينٍ تحدث فيه عن بقية أولاده بما نعرفه .

دور السلطان «أبى عنان»
ووزيره «ابن ودرار» فى ظهور الرحلة

عندما يذكر التاريخُ المعالمَ الحضارية التى شيدها السُّلطان «أبو عنان» (٧٥٩ هـ = ١٣٥٨م) ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان أبى سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق مؤسس دولة بنى مرين ، وعندما يذكر التاريخُ مجالسَه العلمية التى كانت أشبه ما تكون بدور الحكمة بالأمس ، أو بالأكاديميات كما نسميها اليوم ، وعندما يذكر التَّاريخُ الأصداء العظيمة التى تركها «أبو عنان» على الساحة الدّولية بما وقّعه من اتفاقيات وما أبرمه من معاهدات ، وعندما تتحدث مصادر التاريخ عن أسطوله الذى كان يقوم بنفسه على بنائه . . وعندما نذكر حِسَّه السياسى المرهف ، وحزمه فى ممارسة الحكم، وعندما نذكر هوايته الرياضية المفضلة : القنْص بالصَّقر . . . عندما يذكر الناس كلَّ هذا ، فإن من واجبهم أن يذكروا إلى جانب تلك المناقب والمحامد عملاً آخر لا يقلُّ ـ إن لم نَقُلْ إنه ينافس ـ عن تلك الأعمال أو يفوقها، ذلك العمل هو الأمر الذى أصدره ـ وهو بفاس ـ بانتساخ رحلة «ابن بطوطة» وجعْلها فى متناول القراء ، بالرغم مما ظهر من بعض معاصرى الرحالة المغربى ـ من أمثال «ابن خلدون» ـ الذين شككوا فى مصداقية الرحلة ، وقصدوا الوزير «ابن ودرار» فى محاولةٍ لكتم أنفاسها !

لقد تأكد أن القرار الذى اتخذه العاهل المغربى كان قرارًا عظيمًا ورائدًا ، وكان وراء تخليد اسم «أبى عنان» بالرغم من أن حكمه لم يتجاوز عشر سنوات!! فها نحن اليوم نعيش مع اهتمام رجال الفكر كلِّهم - سواء كانوا عربًا أو عجمًا - بهذه الرحلة ، التى كانت بالفعل حدثًا فريدًا من نوعه . . حدثًا ربط تاريخ المغرب لأول مرة بتاريخ بقية العالم ، بما فى ذلك الجهات النائية ، وبما فى ذلك بعض الجهات التى لم تكن تدين بالإسلام . وهكذا وجدْنا أن الرحلة تمثّل جسرًا متينًا يجسد الحوار بين الحضارات فى دول المعمورة، سواء فى القارة الإفريقية أو الأسيوية أو الأوروبية . ومن ثَمَّ كان لها بُعد دولى واسع أعطى العاهِلَ المغربى فرصةً ثمينةً لكى يخلد اسمه عبر التاريخ كنصيرٍ لحرية الفكر ، وكمنقذٍ للتراث ، ومشجع للإبداع . . ويكفى أن نعرف أن الفكر الحديث يعتبر «ابن بطوطة» ثالث ثلاثة رفعوا اسم المغرب عاليًا بعد «ابن رشد» و«ابن خلدون» ، وأنه - أى «ابن بطّوطة» - أكبر رحالةٍ فى التاريخ البشرىّ كله على حد قول «أندرى ميكيل» .

وقد استمعنا من الكاتب الفرنسى الأكاديمى «جان دورميسون» (J.D'ormesson) (مارس ١٩٩٥م) أثناء حفل تكريمى حاشد ؛ إشادةً كبيرة وعظيمة وعطرة بمركز «ابن بطوطة» المؤرخ والجغرافى والاجتماعى ، الذى كان ممّن « استطاعوا أن يؤثروا عَلَىَّ - كما يقول «دُورْميسون» - بمفاتن إبداعهم ، الأمر الذى لم يظهر أثره فقط على ما كتبتُه ، ولكن ظهر فيما كنت أستوحيه مما دوَّنه «ابن بطوطة» ، الذى كان فى صدر الذين أعطوا الإسلام بُعْدًا دوليًّا فيما يتصل بعظمته وتسامحه» .

• ابن وُدْرار

كان من أبرز مـا لفت نظرنا من سيرته أنه الـوزير الحصيف الذى أنصف «ابنَ بطـوطـة» ، وأرجع «ابنَ خلـدون» إلى صـوابـه فيما يتعلق بمصـداقيـة الرحلة .

كان «أبـو زيان فارس بن ميمون بـن وُدُرار الحَشَمِى» قائدًا مرموقًـا لدى السلطان «أبى الحسن» ، ومن هنـا رشَّحه للقيـام بالسفارة عنـه لدى الملك «النـاصر محمـد بن قلاوون» بمصر ، فى أعقـاب استرجـاع السلطـان «أبى الحسن» لملكـه على تلمسان وبجـاية (عـام ٧٣٧ هـ = ١٣٣٧ م) ، الأمـر الذى ردّدت صداه ممالك إفريقيا على ما تؤكده كتب التاريخ .

وقد تضمنت الـرسالـةُ التى حملها «ابن وُدْرار» إلى العـاهل المصرى أخبارًا جدَّ هامة عن الحالة فى الغرب الإسلامى .

ثم أصبح «ابن وُدرار» وزيرًا مـلازمًا للسلطان «أبى عنان» بعـد تمكنه من الحكم عِوَض أبيـه ، فكان السلطـان يعهد إليـه بالمهمات الجسـام ، وهكذا نجح فى عام ٧٥٧ هــ ، فى المهمَّة التى عهد بها إليه فى معـركة «أنكَاد» . . . كما نجح فى تطـويق حركـةٍ قامت جنوبـىّ المغرب فى عام ٧٥٤ هــ ، حيث أنشأ مدينة أسماها (القاهرة) ، أحكم بها الحصار على المتمردين هناك !

وبعـد أربـع سنـوات ، أى فى عـام ٧٥٨ هــ ، عُهـد إليـه بإخمـاد ثـورةٍ للحفصيين بتونس ، فجاءوا إليه مهطعين .

وهكذا بلغ «ابن وُدرار» منـزلةً لم يبلغها أحـدٌ فى الدولة ، وهنـا حصل ما يمكن أن يحصل عندمـا يشعر القائد ، أىُّ قائد ، بأنـه أمسى فى موقع « لا

يمكن الاستغناء عنه فيه » ، بل وبأنَّ فى استطاعته أن يصبح الرقم الواحد فى الـدَّولـة! ولـم يكـن السلطان «أبـو عنـان» من الملـوك الـذين تغيب عنهم «الهواجس»، وهكذا فما لبث الـوزير أن فوجئ بمداهمة بيتـه والإجهاز عليه والناس يحْتفلون بعيد الأضحى من عام ٧٥٨هـ (أواخر نوفمبر ١٣٥٧م).

● **ابن جُـزَىّ**

وتأتى الشخصية الثالثـة التى كان سبب ظهورها على الساحـة حدثًا وقع على سبيل المصادفـة ! ويتعلق الأمر بـ «أبى عبـد الله محمـد بن أبى القاسم محمد بن أحمد بن جُـزَى» ، المولود بغرناطة سنة (٧٢١ هـ = ١٣٢١م) .

لقد اجتمع هذا الرجلُ بـالرحالة المغربى فى غرنـاطة ، وتحديدًا فى بستان «أبى القاسم بن عاصم» ، حيث جمع عددًا من وجوه العاصمة الأندلسية ، ووجدنـا أن «ابن جُـزَى» يعـرب عن ارتياحه لـلاستمتاع بأخبـار رحلة «ابن بطوطة»، ولم يتردد فى الاعتراف بأنه «قيَّـد عنه فى ذلك البستان أسماء الأعلام الذين لقيهم «ابن بطوطة» فى الرحلـة ، وأنه استفاد منه فوائد عجيبة . . » . وبهذه المناسبـة سأل ابنَ بطوطـة عن مولده، فأخبره بأنـه ولد بطنجـة فى يوم الاثنين ١٧ من رجب سنـة ٧٠٣هـ . ولا ننسى أنَّ «ابن جُـزَىّ» هذا كـان على ذلك العهـد فى خـدمة «أبى الحجـاج يـوسف بن الأحمر النصرى» ملك غرناطة ، الذى كان يطرب لأدب الكاتب وفكاهته .

ولأن الله إذا أراد أمرًا هَـيَّـأَ له أسبابَه كما يقولون ، فقـد حدث أن تعرض «ابن جُزى» لظلمٍ لحقه من مَلِكه «أبى الحجاج» فى أعقاب وشايةٍ آثمة ، ولم يتحمل «ابن جُـزَىٍّ» إهـانة السوط ، فالتحق بـالمغرب « فى آخر عام ثـلاثة وخمسين » ، حيث وجد من السلطان «أبى عنان» ما كان يرجوه . . .

وقد كان « ابن جُـزَى » فى صدر الذين قالوا الشعر فى « الزاوية العظمى » التى بناها السلطان «أبو عنان» على ضفاف وادى الجواهر .

وقد شرع فى تأليفٍ حول تاريخ غرناطة ، وقد وقف «لسان الدين بن الخطيب» على بعض أجزائه فى عام ٧٥٥ هـ (١٣٥٤م) بمناسبة سفارته لدى السلطان «أبى عنان» .

وعندما قرّر السلطان «أبو عنان» استنساخ رحلة «ابن بطوطة» ؛ لم يجد فى مجلسه أفضل من الكاتب «ابن جُزَى» صاحب الخط الرفيع البديع ، لا سيما أنه قام ـ على ما أسلفنا ـ بالخطوات الأولى وهو فى غرناطة . وهكذا امتثل الأمر على ما كان به من علة لم تمهله ، وهكذا كُتب لـ «ابن جزى» أن يستمر ذكره عبر الأرجاء برغم عمره القصير الذى لم يتجاوز ستًّا وثلاثين سنة .

بين «ماركو بولو» و«ابن بطوطة»

لقد اقترن الحديث عن «ماركو بولو» البندقى[1] بالحديث عن «ابن بطوطة» الطنجى لدى كل الذين اهتموا بالرحالة ، وخاصة عند علماء الغرب .

وقد كان من حقّهم أن يفعلوا ، فإن الأول هو الذى قصد ـ قبل نحو من ستين سنة من تحرك «ابن بطوطة» ـ بلاد الشرق الأقصى ، وسُجِّلَت مذكراته التى كانت محل تعليق واسع . . . لكنّ الملاحَظ أنَّ رحلة «ابن بطوطة» اتسع فضاؤها أكثر مما كان الأمر بالنسبة لرحلة «ماركو بولو» ، علاوةً على الحصيلة العلمية التى كانت تختلف من الواحد إلى الآخر .

وهكذا فإن كان «ابن بطوطة» قد حقق رحلته وحيدًا ، و إذا كان محرر رحلته «ابن جُزَى» كان يقتصر على إضافات محدودة وموثقة ، فإن محرر رحلة «ماركو بولو» ـ «روستيشِيلُّو RUSTICHELLO » ـ كان يضيف من خياله على ما لاحظه بعض المعقّبين، وخاصة عند الحديث عن الصين . يضاف إلى كل هذا أن رحلة الأول اقتصرت على آسيا دون إفريقيا وأوربا ، ومعنى هذا أن الجمهور الذى عَرَفَ الرحالة المغربى كان أوسع من جمهور «ماركو بولو» .

---

(١) نسَبة لمدينة البندقية بجمهورية إيطاليا ، وهى المعروفة أيضًا بـ «فينيسيا» .

وفى معرض اعتزاز «ابن بطُّوطـة» بطول نَفَسِه فى الـرحلة ، واتسـاع رقعة منهاجه فى التجوال ، ذكر أنه يفـوق السائح المصرى «الشيخ عبد الله» الذى لم يـدخل لا إلى الصيـن ، ولا إلى جـزيـرة سرنـديب ، ولا المغـرب ، ولا الأندلس ، ولا بلاد السودان . **وأعتقد أنه لو قُـدِّرَ لـ «ابن بطوطة» أن يجتمع بـ«ماركو بُـولو» لَـعَـلَّقَ بمثل ذلك التعليق ، إذ إننا عـرفنا أن الأراضى التى زارها الرحالة المغربى كانت تفوق كثيراً وكثيراً ما قطعه «ماركو بُولو» .**

وقد تفوق رحالة طنجة على رحالة البندقية بشىء أهم ، وهو أنه استطاع أن يمتزج مع سكـان البلاد التى وصل إليهـا عن طريق المصـاهرات ، وعن طريق الوظائف السامية التى تقلـدها ، والاتصالات التى كان يُـجـريها مع مختلف الأوساط ، الأمر الذى كان يُرضى فضوله وتطلعاته المتنوعة والمتجددة فى ذات الوقت . ويكفى ـ لكي نعرف حجم الـرجلين ونعرف مع هذا مدى رصيـد الجانب المعرفى لكـلا العَمَلين ـ يكفى أن نقـوم بجردٍ لعـدد الأسماء الجغـرافيـة التى وردت عنـد هذا وذاك ، وأن نعـدّ الأعـلام الشخصيـة التى جاءت فى مذكرات الأول والثانى . . يكفى ذلك لنخلص إلى الإشادة بذاكرة الـرحالـة المغـربى التى استطـاعت أن تختـزن كل تلك الأسماء جغـرافيًّـا وإنسـانـيًّـا ، وأن تحتفظ بشكلها وضبطها ومواقعها ، بـالرغم من العدوان الذى وقع على مذكراته .

إن كل ذلك الاستظهار وذلك الاستيعـاب كان فوق طاقـة البشر حقًّـا ، وحتى جانب الإتحاف والإطـراف فى كِلْـتَـا الرحلتين كان يُبرز ـ دون تردد ـ تفوقَ «ابن بطوطة» .

اهتمام المستشرقين بالرحلة

نال المغرب نصيبًا وافـرًا فى الدِّراسات الاستشراقية ، ليس فقط لأنه غنى بما يزخـر به من تراثٍ حضاريّ هـائل ، وليس فقط لأنّه البلد الوحيـد الذى ظل يتمتَّع بكيانـه كدولة طـوال عصور متتـابعة ، ولكن لأنَّ مركـزه الجغرافىّ ووضْعه بين الأمـم الأخرى جعل منه بلدًا إفريقيًّا ، وبلدًا عربيًّا وبلدًا مسلمًا ، وبلدًا له حضورٌ قـوىّ فى القارة الأوربية . . ومن ثَـمَّــةَ كان محلَّ اهتمام من لَدُن الذين تشغلهم إفريقيا ، وممن يهتمُّون بالعالم العربى والعالم الإسلامى ، وأخيرًا من الذين يـولون عنايتهم للعـلاقات التى شدّت أوروبّـا بعالم المشرق والمغرب .

وهكذا فنحن أمام اهتمامٍ متنوّعٍ يتناول سائر الفضاءات التى ربَّما لا يخطر بعضها على البال .

لقد وجـد المستشرقين فى كلّ ذلك التُّـراث مجالاً واسعًا لنشـاطهم ، لأنّه من جهةٍ يساعـدهم على فهم الجهات الأخرى ، ولأنه من جهـةٍ ثانيةٍ يعطِى صـورةً دقيقـة عن نمَط خـاصٍّ يتميـز عن الأنماط التى عـرفـوهـا فى بعض الأنحاء .

وسينصبُّ حديثنا هنا على موقف المستشرقين من رحلة «ابن بطوطة» . إنْ فى حديثها عن القارة الإفريقية أو الآسيوية أو الأوروبية .

لقد كـانت أصداء وجود رحلةٍ مَّـا لـ «ابن بطوطة» تجاوزت بـلاد المغرب عندما رَوَّجَ أخبـارها «ابن خلدون» فى مقدمتـه ، «والتمجروتى» فى رحلته ، وكذلك «المقّرى» فى كتابه (نفح الطيب) ، هذا إلى أصداء الرسالة الهامة التى وقفنا عليهـا ضمن الوثـائق التى كان يتـوفر عليها الـدبلومـاسى النمساوى المستعرب «دومباى DOMBAY» .

وهكذا ، فبعـد كلِّ تلك الأصداء والأخبـار مِـمَّـا عـرفنا ومما لم نعرف ، أخذ المستشرقـون يبحثون عن نُسخهـا الأصلية ، ولكنهم لم يجدوا إلاّ مختصرًا اكتشفه المستشرق العالم الألمانى «بوركهارت Burckhardt » ، الذى كان أولَ مَن أثار انتباه أوروبـا لهذه الرحلة فى أعقاب المهمـة التى كُلف بها فى إفريقيا عام ١٨٠٩م .

وقـد حصـل «سيتزن Seetzen» ـ وهـو بالمشـرق ـ حـوالى سنة ١٨١٠م على طـائفةٍ من المخطــوطـات لفائـدة مكتبـة كـوثه (Goethe) ، كان من بينها تأليـف من أربع وتسعين صفحة ، يحتوى على مختصرٍ ـ كذلك ـ لرحلة «ابن بطـوطـة» .

وبعض مُضِىِّ عشر سنوات على عمل «سيتزن» ، نشر المستشرق الألمانى «كوسكَارتن Kosegarten» ــ بمناسبـة ندوةٍ أكـاديمية فى عـام ١٨١٨م ـ مقالةً تحتوى على نصٍّ مصحوبٍ بالترجمة لثلاث قطع من ذلك المختصر.

وهكذا كـان «كوسكَارتن» البـاحث الأوَّل الذى قدم إلينـا بعض المقاطع من الـرحلة، الأمـر الـذى مكَّن أحـد الجغرافيين من التعـرُّف على مسـالك السُّودان .

لقد نشــر «كوسِكَارتن» ثـلاث مقتطفات من ذلك المختصر : إحـداها عن رحلـة «ابن بطوطـة» إلى إفريقيـا ، والثـانية عن رحلتـه إلى بلاد فـارس ، والثـالثـة عن رحلة «ابن بطـوطـة» إلى مـالـديف . وإضافـةً إلى هـذا أعلن «كوسكَارتن» عن نيته فى أن يقـوم بنشر سائر المختصر ، لكن مشروعَه هذا لم يتمّ . إلاَّ أنَّ أحد تـلامذته ــ « أَبّيتْـز Apetz » ــ قام فى عـام ١٨١٩م بنشر مقتطفـةٍ رابعـةٍ من ذلك المختصر عن بـلاد الفلفل والأَبـزار : الـمُلَـيْـبَار (Malabar) .

وقـد شهـدت نفس السنـة ــ ١٨١٩م ــ ظهـورَ رحلـةٍ فى بـلاد النـوبـة للمستشرق «بـوركهارت» سـالف الـذّكر ، وفى الملحـق الذى صحب هـذه الرحلة للنّوبة نجد تعليقًا يتصل بـ«ابن بطوطة» ، وقد تبيّـن أن «بوركهارت» يمتلك مختصرًا آخـر أكثر ضبطًـا من المختصر الـذى اشتغل عليه «سيتـزن» و«كوسِكَارتن» و«أَبّيتْـز» .

ونذكـر من الآن أن «بوركهـارت» أنصف الرحالـة المغربى «ابن بطـوطة» عندمـا أضفى عليه النعت بأعظم رحّـالةٍ يقـوم بتسجيل مذكـراته فى العصر الوسيط ، وهى الشَّهـادة التى نَـرَى البروفيسور «أندرى ميكيل» بعـد قـرن وثـلاثة أربـاع القـرن يـزكّيها ، على نحـو مـا كان من الكـاتب الإنجليـزى «أبركرومبى» ، والأكاديمى الفرنسى «جان دورميسون» .

ولم يكن ذلك المخطـوطُ المختصر المكتشف ـ ونسخُـه ثـلاث ـ من لـدن «بوركهارت» غيرَ (المنتقى) الذى ألّفه العالم «محمد بن فتح الله البَيْلُونى» ، وقد انتقل المخطوط بعد وفاة «البيلونى» إلى مكتبة جامعة كِيمبْـريدج . وعلى هـذا المخطوط ، وتحت إشراف الجمعيـة التى تعنى بترجمة المكتبة الشرقيـة ،

اشتغل العالم المستشرق «صامويل لى Samuel lee » فترجمه إلى الإنجليزية، وزوّده بعددٍ من التعليقات المفيدة .

وعن هـذا المختصر قـال «دوزى» كلمتـه الصـادقـة التى سجلهـا عنـد الحديث عن مخطوطة «ابن بطوطـة» التى كان يمْتلكها المؤرخ الإسبانى «دى كايانكوس De Gayangos » على ما أسلفنا .

وأحب أن أضيف هنـا معلومـةً أخـرى ، تلك أنه إلى جـانب (منتقى) «البيلونى» ، وجدنـا فى المشرق ـ وبالـذات فى مصر ـ (منتخبًا) آخر للرحلة مجهول المؤلف ، ولكنه عُرِفَ بعنوان (مختصر الأزهرى) .

وبعد هـذا الحديث عن هذه المختصرات للرّحلة ، أنتقلُ إلى (الـرحلة) فى نصها الكامل ، وعلى ما عُرفت بـه بعدُ فى التّاريخ المعاصر بسِفْريها الأول والثانى .

وهنا نـلاحظ أن المستشرق البرتغـالى الأب «جـوزى دى سانطو أنطـونيو مورا P. José de santo Antonio Moura » قام فى عـام ١٧٩٧م بترجمة السِّفْر الأوّل من الـرحلة الأصليـة إلى البرتغاليـة ، ونشرتْه « الأكـاديمية » فى ليشبونة فى عام ١٨٤٠م .

وهذه الترجمة تقوم على مخطـوطٍ كان هذا الأب اشتراه أثناء مقامـه بمدينة فاس ، عندما صحب السفارة البرتغالية ـ ترجمانًا ـ إلى بـلاط العاهل المغربى السلطـان «مـولاى سليمان» ، فى عـام ١٢١١ ـ ١٢١٢ هـ = ١٧٩٧ ـ ١٧٩٨م قـريبًا من تـاريخ مقام «دومبـاى» بطنجة ، وكـذلك تاريخ مقـام «دولابورط» بها وبمدينة الصويرة .

وفى مقدمته يؤكد الأب «مورا» أنه قام بترجمةٍ أمينة لهذا الجزء ، مضيفًا إلى

هذا أن المخطوط مكتوب بخط جميل ، ومُـعْـتَـنًى به أكثر ما يكون الاعتناء ، بـل إنـه ـ أى الأب «مُورا» ـ يعتقد أنه منقـول مباشرةً مـن النسخة التى كتبها «ابن جُـزَىّ» بخطه .

ومما يلاحظ أنَّ الأب « مـورا » لم يبدأ الترجمة إلى البرتغـالية إلاَّ من الفقـرة التى تتحدث عن خـروج «ابن بطوطـة» من طنجة ، لأنه ــ على ما قـال ـ لم يعثر عـلى الـورقتين الأوليين لهـذا السِّفْر ، وفعلاً فـإن المخطوط ـ كما وقفتُ عليه فى مكتبـة الأكاديميـة العِلمية بلشبونـة عـدة مرّات ــ مبتـور الـورقات الأولى . . .

وقد كان مما لوحظ على عمل الأب «مُورا» أنه أسقط الأبيات الشعرية من حسابه ، فلم يترجمها! بل وقد أهمل كلّ النقول عن «ابن جبير» إلخ . . . أكثر من هذا !

لقد حـذف بعض المقاطع بـرِمَّتها ، مثـلاً ما يتصل بعلماء الإسكنـدرية . . . وقـد برَّر هـذا الصنيع منه بقـوله : « إن الـلائحة واسعـة ومزعجـة» . وهكذا كان عمله عند ذكر ملـوك مصر وقُضاتها وعلمائها وأعيانِها . . . وكان هذا فعله وهو يصف مكة والمدينة!

إنَّ مـا حـذفـه الأب «مورا» كـان يـوازى رُبع السِّفْـر الأوَّل ، عـلاوةً على تسـاهله فى ضبْط المواقع الجغـرافية والشخصيـة ، على ما لاحظـه الباحثـان المعروفان «رينو Reinaud» ، و«دوْزى Dozy» .

والحديث عن محاولـة الأب «مورا» يجرُّنا إلى الحديـث عن بقية من حـاولوا ترجمة الرحلة ، وهنا لا بد من التَّذكير بأن هناك أجزاءً كثيرةً ومهمةً من الرحلة الأصليّة أمستْ مترجمةً إلى عدة لغات . وقـد كان فى أوّلها قطعة جيّدة تتعلق بالسُّودان ترجمها البارون «دوسلان» ، مصحوبة بعددٍ من التعاليق ، ومتبوعة

ـ وهذا مهمّ ـ بخطاب بعث بـه «دوسلان» إلى «رينو» حول المخطوط الأصلى للرّحلة .

وقد أتى بعد هذا «إدْوار دولوريى Édouard Dulaurier » فقدم إلينا فى (جُورْنال أسيْاتيك) النصَّ والترجمة مصحـوبين بالتعاليق للقسم الخاص من الرحلة بـجُزُر الأرخبيل الهندى . ثم قام كلٌّ من «ديفريميرى Defremery » و«سانكينيتّى Sanguinetti » مرَّاتٍ متلاحقـةً بترجمـة أطرافٍ واسعـةٍ مـن الرحلـة الأصلية . وهكذا نُشِر ، بـادئَ الأمر ، القسم الخاص بـرحلة «ابن بطوطة» إلى فارس وإلى آسيا الوسطى ، ثم كان الحديث عن الرحلة إلى القِرَم وقفجق، ثم أيضًا الـرحلة إلى آسيا الصغرى ، ثم الفصل المتعلق بـالسلطان المغـولى الذى كـان يحكم العراقين : عـراق العرب وعـراق العجم ، ويحكم كذلك خراسان ، وهو السلطان «أبو سعيد بهادور» . طبعًا كلّ هذه الأعمال كانت مصحوبة بالتعاليق التى يقتضيها الحال آنَ ذَاكَ .

وفى بداية سنة ١٨٥٢م قـدَّم «شيربُونُو Cherbonneau » أستاذ العربية بقسطنطينة تـرجمةً مختصرة لقسم أول من الرحلة ، إلى أن أخذ «ابن بطـوطة» طريقه نحو سوريا ، علاوة على المقدمة التى حررها «ابن جُـزَىّ » ، ولم يكن تحت يد الأستاذ «شيربـونو» غير مخطوطةٍ واحـدة حديثة العهد جـدًّا ، الأمر الذى ربما يفسر الأخطاء التى احتوت عليها الترجمة .

وهكـذا ـ ومـن خـلال ما تقـدم ـ أخذنا فكرةً عن الصَّحْوة التى أعقبت المبـادرة الأولى التى قـام بهـا المستشرقـون الألمـان . . . لكن العمـل الـذى نبقـى دَيِّنيـنَ لـه بكـل التقـدير هـو ذلك الـــذى قـــام بـه ـ فيمـا بين عـام ١٨٥٣ وعـــام ١٨٥٨م ، وبتكليـفٍ مـن الجمعيـة الآسيويـــة ـ كـلٌّ مـــن

«ديفْريمِيرى» و«سانكينتى» سالِفَى الذّكر ، ذلك العمل الذى تمَثَّلَ فى نشرهما للرحلة مترجمةً بكاملها فى أربعة أجزاء ، وقد شجعهما على ذلك العمل ما كانت الخزانة الملكية بباريس تتوفر عليه من نسخٍ ثلاثٍ مخطوطة لرحلة «ابن بطوطة» .

وبفضْل ظهور المجلّدات الأربعة للرحلة مصحوبةً بالترجمة الفرنسية ، صارت رحلة «ابن بطوطة» فى متناول العالم الغربى ؛ وفى متناول العالم العربى والإسلامى ، الذى كاد أن يجهل كلَّ شىء عن رحلة «ابن بطوطة» .

إن مبادرة هذين الرجلين نبّهت ـ وبشكل بارز ـ كلَّ الذين كانوا بحاجة إلى أن يعرفوا أكثر عن الجانب الجغرافى للرحلة ، وكذا عن الجانب التَّاريخى والأنثروبولوجى . وإذا كان الاثنان قد أسهما بصفة جيّدة فى بعث هذا التراث المغربى الكبير من مرقده ، فإن هناك شخصيةً ثالثة أسدت معروفًا لا يُنسى لذلك التراث ، ويتعلق الأمر بالأستاذ الراحل «هاميلتون أليكساندر روسكين جب H. A. R. Gibb » الذى قام بترجمة معظم الرحلة إلى اللغة الإنجليزية منذ أواخر العشرينات .

ولم يكتف «جب» بالترجمة الحرفية ، ولكنه كان يحاول أن يصل إلى أسرار المعنى ، بل أكثر من هذا قام السير «جب» بتحديد طائفةٍ من الأعلام الجغرافية ومواقعها ما أمكنه ذلك ، وقد قام إلى جانب هذا بالعمل على التعريف بعددٍ من الشخصيات التى وردت فى صُلب الكتاب ، ذاكرًا فى أغلب الأحيان مصادره ومراجعه . ويصح القول بأنه لا يمكن للمهتم برحلة «ابن بطوطة» أن يستغنى عن المجهود الذى بذله هذا الرجل فى سبيل تصحيح ما قام به السابقون مما استفدنا منه بطبيعة الحال .

وقد كان «جب» نشر قبل إصدار الجزء الثالث دراسة نقدية حول رحلة «ابن بطوطة» فى آسيا الصغرى وفى روسيا ، بمناسبة تكريم الأستاذ الراحل «ليفى بروفنسال» .

وما دُمنا فى ذكر «جب» ، فإننا نسجّل هنا أنه بعد وفاته اهتم أحد الباحثين بنشر الجزء الرابع من ترجمة الرحلة الإنجليزية ، ويتعلق الأمر بالأستاذ «بيكينكام Beckingham »، الذى قام فى عام ١٩٩٤م بإصدار هذا الجزء ، واعدًا فى المقدمة ـ وفى بعض التعاليق ـ بأنَّ مجلدًا خامسًا فى طريقه إلى الظهور . . خصّصه، فيما يبدو، للفهارس وللجانب الكرونولوجى والتوثيقى . . .

وقد كان فى صدر مَن استفاد من عمل «جب»، المستشرق الروسى «أ. يو. كراتْشكُوفسكى» (ت ١٩٥١م) فى كتابه القيّم (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ، الذى ترجمه الزميل الراحل «صلاح الدين عثمان هاشم» .

لقد قال عن «ابن بطّوطة» : « إنه منافس خطير لِمعاصره الأقدم منه تاريخًا «ماركو بولو» . ومن الطبيعى ـ كما يقول «كراتشكوفسكى» ـ أن «ابن بطوطة» الطنجى كان له إحساس فطرىّ ذاتى بظروف حضارة العالم الذى يصفه أكثر ممّا كانَ لَدَى «ماركو بولو» البندقى ، وأن وصف الرحالة المسلم لخط سير رحلته كان أدْعى إلى الثقة ممّا عليه الحال مع معاصره المسيحى» .

وقد قام الأستاذ «روس دان Ross E. Dunn » فى كتابه باللّغة الإنجليزية (مغامرات ابن بطوطة) بنشر عرضٍ للرحلة ، ولو أنه كان يحكى

عن «ابن بطوطة» بأسلـوب خاص ، ولكنه زَوَّدَ كتابه بتعـاليق وبخرائط جدّ مفيدة .

وقد ظهر عالم تشيكى جليل قام بدراسة نقـدية رائعةٍ للرحلة ، خاصة ما يتصل فيها بتحـديد المراحل والمواقع والمسـافات ، مقرونـةً بتحديـد الأزمان والظـروف ، ولا أعتقـد أن أحـدًا يستطيع أن يجد من الـوقت ومن الصبر مـا يُمَكِّنُـهُ من القيام ، بـأناةٍ وتـؤدة ، من مـلاحقة «ابـن بطوطـة» ، وكشف هفواته ، والوقوف على فجـواته ، على نحو ما قام ذلك المستشرق التشيكى ، العالم المتمكن ، الزميل «إيفان هربك Ivan Hrbek» ، الذى قرأنـا له بحثًا جدًّ مفيد فى براغ فى أوائل الستينيات ، قبل أن يتوفاه الله فى عام ١٩٩٣م .

وقد تهافتت جهات أخـرى مـمّن تنتمى للعالَم الناطق باللُّغـة الإنجليزية على الاستفادة من الـرحلة بعد ظهـور الترجمة الإنجليزيـة ، وهكذا اتسعت دائرة المعرفة بها والاطلاع عليها أكثر فأكثر .

هذا ، وقد قـرأ الناس ترجمـة الرحلة ـ كُـلَّـهَـا أو بَـعْـضَـهَـا ـ بعـددٍ مـن اللُّغات الأخـرى غير الفرنسية والإنجليزيـة ، فترجمها الدكتور «هـانس فون مـزيـك Hans Von Mzik » إلى الألمـانيـة ، وترجمها «إيفـان هــربك» سالف الذكر إلى اللُّغة التشيكية ، وتـرجمها إلى الإيطالية «جابرييلى Gabrie-li» فى عام ١٩٦١م ، وتـرجمت إلى اللُّغة التُّـركية على يد لجنـة وزارة المعارف أواخر عهد العثمانيين فى خمسة مجلدات ، وقـد ترجمت إلى اللُّغة الفارسية من لَـدُن الدكتـور الزميـل «محمد على مـوحّد» تحت عنـوان : (سفـرنامـه «ابن بطوطة») ، وإلى اللُّغـة السويدية أيضًا ، وقد قـام بترجمتها «هيرمان المكِيسط Herman Almquist » ، خاصـة الفصل الخاص بتحرّك «ابن بطـوطة» من

طنجة إلى الإسكندرية ، هذا إلى ترجمتِها للّغة الهندية ، واللغة الأرمنية ، واللّغة اليابانية ، واللُّغة الإسبانية .

وعلمتُ أثناء زيارتى لسمرقند فى صيف عام ١٩٧٤م أن جماعةً من المحققين يعكفون على مراجعة ترجمةٍ للرحلة باللغة الرُّوسية . وقد أهديَت لى أثناء زيارتى للصين ترجمة كاملة للرحلة باللغة الصينية فى عام ١٩٨٤م .

لقد ناهزت تلك الترجمات العشرين ، ونحن على يقين أن هناك ترجماتٍ أخرى لا نعرفها . وكأنَّ ترجمةً واحدةً للرحلة لم تكن كافية لأصحاب تلك اللغة ، فوجدنا من بين أصحاب اللغة الواحدة مَن ينافس زميله فى البحث عن خفايا الرحلة ، فيقدم لنا رحلة «ابن بطوطة» باللغة الفرنسية ، أو الإنجليزية ، أو البرتغالية ، أو الألمانية ، فى بحوثٍ وترجماتٍ أخرى ، بأساليب أخرى . ومن هذا ما ظهر فى سنة ١٩٩٠م عن مؤسسة (لادِيكوفيرِت) "La Découverte" بباريس من تقديمٍ وتعليقٍ فى ثلاثة أجزاء للأستاذ «ستيفان ييرازيموس Stéphane Yerasimos »، اعتمد فيها أساسًا على الناشرَيْن الفرنسيين السابقين ، وعلى أعمال السّير «هاميلتون جب» .

هذا إلى جانب العمل السابق الذى قام به فى عام ١٩٦٨م «فانسان مونطيْ V. Monteil » عندما أعاد نشر الرحلة ، وزودها ـ بدوره ـ بتقديم جيّدٍ ، وتعليقاتٍ مفيدة ، اعتمد فيها على عمل العالم التشيكى «إيفان هربك» سالف الذكر ، هذا إلى البحوث المركزة التى عززت جانب الرحلة ، من أمثال بحث العالم الفرنسى الأستاذ «ر. مُونى» وفريقه ، والأستاذ «أ. ميكيل» ، وأمثالُها كثير .

وينبغى أن نؤكـد أن معظم هذه الترجمات ــ إن لم نَـقُـلْ كلّهـا ـ تُصْحَبُ بتعليقـات لا غنى عنها للقـارئ ، بل أكثـر من هـذا فائدةً أن بعض هـؤلاء الأساتذة قـاموا بوضع مقدمات لكل جزء من الأجـزاء ، حتى يجعلوا القارئ الأجنبى عن العـربية فى الصورة الكـاملة لفهم العـالم الإسلامى وتقـاليده ، ولفهم تاريخ دُوَلِهِ على ذلك العهد .

لاحظنـا هـذه المبـادرة ابتـداءً مـن النـاشرَيْن الأولين «ديفْـريميرى» و«سانكينيتّى» ، وانتهاءً بالسِّير «هاميلتون جب» ، والأستاذ «بيرازيموس» ، وأخيرًا بالأستاذ «توماس ج . أبركرومبى T. J. Abercrombie» الذى قام فى عام ١٩٩١م برحلـةٍ فريدةٍ من نوعها ، سار فيهـا على خُطى «ابن بطوطة» ، بتكليفٍ من المجلـة الأمريكية الذائعة الصيـت(ناشيونال جيوغرافيك Na-tional Geographic) .

ونذكـر إلى جانـب كُلِّ ذلك العطاءِ الجمّ الـذى قدمتـه إلينا الـدِّراسات الغربية فيما يتصل بـ « ابن بطُّوطة » ، أننـا نرى مما يثرى هذا الموضوع أن نشير إلى بعض المؤاخذات التى لنـا على جانبٍ من تلك الأعمال ، بـالرغم من أنها مؤاخذات جدّ محدودة . .

هناك بعض الكلمات المغربية التى استعملها «ابن بطوطة» بحكم أنه كان يعيش معها ، وهـاته الكلمات لم تجدْ عند بـاحثينا عنايـة بها للبحث عنها فى الفضاء المغربى ، فراحوا يبحثون عنها فى قواميس بعيدة عن بيئتنا !!

وأذكـر على سبيل المثـال كلمـة « الفُقَّـاع » المغــربيـة ، التى تعنى بكل بساطة : الفُطْـر أو الكمأة ، لكنَّ زُمَـلاَءَنَا رَأَوْا فيها ما يوحى بنبيذ الشعير !

وإلى جانـب «الفقاع» نـذكر كلمة مغـربية أخـرى : « بوقنينـة » ، التى

حيَّرت أصدقاءَنا ، فوضع بعضهم علامة استفهام عليها ، وراح بعضهم يبحث عن معنى لها من خلال معنى « القنّينة » عند المشارقة ، مع أن الكلمة معروفة فى شمال المغرب الذى ينتسب إليه «ابن بطوطة» ، وهو نبات قصير يكثر فى المناطق الجبلية يُستعمل لعدَّة أغراض . وقد حُفظ فى الأمثال المغربية هناك : « غَرَسْتُه حَبَق فخرج لى بُوقنينة » !

ولقد تعب الناشران فى البحث عما تُترجم به كلمة « البوجات » المستعملة فى المغرب بمعنى : الهودج أو المحفَّة التى تُحْمَلُ فيها العروس ، فراحا يبحثان عن معناها فى اللّغات الآسيوية . وقد التبستْ عليهما كلمة «القَرِيّة» ـ كهَدِيَّة ـ فقرآها : القربة ، بالباء !

ونذكر إلى جانب هذا كلمة « المُقَيَّرة » التى استعملها «ابن بطوطة» نعتًا للجُبَّة عندما وقع أسيرًا بأيدى الهنود ، وغدا مدينًا بحريته لشابٍّ هندى أعطاه الرحالة المغربى جُبَّتَهُ ـ وكانت من نوع رفيع ـ فأعطاه الشاب الهندى جُبَّة مُقيَّرة باليَّة . هنا بالرغم من أن الناشِرَيْنِ الاثنين يريان أن النسخ التى يتوفران عليها تكتب « المقيَّرة »؛ فإنهما ـ كما يؤكدان فى التعليق ـ لم يترددا فى أنها « المنيرة » بالنون عوض القاف ، وراحا يبحثان فى الأصل الفارسى عن الكلمة ، وترجماها بالفعل بأنها آتية من النّيلة الفارسية . ومع أن كلمة « مقيَّرة » معروفة الآن عند المغاربة بمعنى « وَسِخة » ، كأنها مطليّة بالقار ، يقال: ثوبه مُقَيَّر ، يعْنى : عليه طبقات من الأوساخ . . .

والجدير بالذكر أن المخطوطات التى نتوفر عليها ـ بما فيها مخطوطة كايانكوس ، والخزانة الملكية ، والخزانة العامة ، وفيها ما نعتقد أنه بخط الرحالة المغربى ـ كلّها وبدون استثناء ترسمها « مقيّرة » على نحو ما نعرفه نحن اليوم .

وقـد كـان من هفوات الترجمة أنـه فى معـرض الثنـاء على زوجةٍ لـه طيبـة المعاشرة، ذَكَر « أنه إذا تزوج عليها بخَّـرت ثيابه » ، فقد ترجما «تزوج عليها» بما يفيد أنـه « تزوج بها » ، وقد كـان من التعسُّف تفرقتهم ــ فى الترجمة ـ بين كلمة العشارين .

وقـد كـان ممـا أثار انتباهنا ـ وقد وقفنا فى « مالديف » علـى اللَّوحة التى تنص على اسم المغربى الذى أدخل الإسلامَ إلى الجزر ـ أن بعض المشتغلين بـ «ابن بطـوطـة» ، وهـو «بيرازيموس» ، رأى أن ينتـزع تلك « البطـولـة» من «البربرى» ويعطيها إلى «التَّبـريزى» ــ نسبة إلى مدينة تبريز ـ بـالرغم من أنه اعتمد فى الترجمة أساسًا على الناشرَيْن الاثنين ! لكنه (أى بيرازيموس) رأى فى هـذه المـرة أن يعتمد ليـس على الاثنين ، لكن على آخـر اسـمه «فوربس Forbes » ، الذى اعتمد بدوره على مخطوطةٍ كان صاحبها يجهل كلَّ ما كتبه «ابن بطوطة» قبله بأربعة قرون عن إسلام جزر مالديف .

وإذا كان « بيرازيمـوس » فضَّل أن يعطى البطولة للتبريـزى ، فإن العالم التشيكى « هـربك » رأى أن القصـد بـالبربـرى هـو أحـد المنتسبين لبـلاد الصـومـال ، نظـرًا لأنهـا أقـرب جغـرافيًـا إلى مالديف ! وكأَن « هربك » لم يقـرأ عن اجتماع «محمد بـن عمـر التـازى البغـدادى» بالخليفـة العبـاسى «المعتمد» (ت ٢٨٩ هـ = ٩٠٢م) على ما نجـده عنـد «التنوخى » فى كتابه (نشوار المحـاضرة) ، ولم يقرأ عن «المقـدسى» فى كتابـه (أحسن التقاسيم) وهو يجتمع بعدد من علماء الأندلس بمكة فى عام (٣٧٧ هـ = ٩٨٧م) .

هـذا إلى أنهما ـ أى النـاشرَيْن السابقَين ــ أحيـانًا لم يتريثـا قليلاً لتقـديم معلوماتهما عن بعض المواقع الجغرافية فى المغرب . وفى هذا الصدد ينبغى أن

نرجع إلى الجزء الأول من عملهما (ص ٨٤) ، والجزء الرابع (ص ٣١٢)، حيث تكررت ترجمة (الزاوية) التى أنشأها السلطان «أبو عنان» خارج فاس بـ «المدرسة البوعنانيـة» ، مع أن القصد إلى مُنشأةٍ أخرى غير المدرسة ! يقول «ابن بطوطـة» : إن العاهل بنـاها بخارج حضرتـه . ومعلومٌ أن «أبـا عنان» أنشأ هـذه المعلمـة الكبرى كفنـدق لإيواء الضيـوف على مقـربـةٍ من وادى الجواهر ، وكانت آيةً فى النقوش والرسـوم المجسَّدة ، هذا إلى أعلام جغرافية أخـرى وقع فيها الخطأ عنـدهما فسَـرَى إلى مَن قلَّـدهما . ونذكـر على سبيل المثال : « ظفار الحبوضى » التى نقل الاثنان أنها « ظفار الحموض » !

ونحن نتحدث عن الأسماء الجغـرافية فى الرحلة ؛ لاحظنـا أن هناك عددًا من الأعلام لم تَنَلْ حظها من البحث والتنقيب ، على نحو ما كان عليه الأمر فى وادى قرة بالأندلس ، وجناتة ، ودار الطمع بالمغرب . وقد اعترضتنا بعد هذا انسياقات أخرى كـان عليهما أن يتريَّثا فيها ، مثل حديثهما عن الأديب أبى الفتيـان « حَيُـوس » عـوضًا عـن «أبى حيُّوس» الـذى هـو الصـواب . وحديثهما عن الشـاعر « شرف الدّين بن محسـن » عوضًا عن الشـاعر « أبى المحاسـن عُنين» الذى هو الصـواب . ومِثْلَ ما ورد عن كتـاب (المفهم فى شرح صحيح مسلم) للقـرطبى ، هـذا الكتـاب سمى عنـدهما انسـياقًـا مـع إحـدى المخطوطـات (المعلم) الذى ألفه «المازرى» ، مع أن الصواب كما هو معلـوم : (المفهم) . وقد كـان مما ورد عندهما أيضًـا : نسبة مـدرسة هامة بـالصالحية فى دمشق إلى «ابن عمر» ، مع أنها لــ «أبى عمر» ، على ما هو فى المخطـوطـات الموثـوقـة . وقـد كان ممـا لفَتَ نظـرنا مـا ورد عنـدهما حول العـلامة «ابن الشحنة الحجار» ، فقـد نقَلا معًا أنه الحجـازى «عوض الحجّار » . . وقد كـان مما وقفنا عليه عند الناشرَيْن المذكـورين ما ورد حول

الشيخ « البجدى » بـالباء ثم الجيم ، فلقد تحرف عنـدهما إلى « النجدى » !
هذا إلى خطأ آخر يتعلق بـ «جمال الدّين أبى المحاسن يوسف المزى» ، الذى رسم خطأً «المزنى» بـالنـون ، الأمر الـذى سـار عليه كل الـذين نقلـوا عن الاثنين دونَ روِيَّة . . . !

وفى الأعــلام الشخصيـــة التى كـانت تحتـــاج إلى التصحيح ؛ مـا ورد عنــدهما حـول « روز جهان القَبلى » عـوض « روز بهان البقلى » الـذى هـو الصحيح .

وقد كـان من الأخطاء التى أثارت الانتباه، مـا ورد من حديثٍ عن « ابن شبرين » ـ بالباء ـ السبتى (نسبة إلى سبتة المغربية) . . هذا العالِمِ تحوَّل اسمه عنـدهما إلى « ابن شيرين » بـاليـاء عـوض البـاء ، كما تحول « السبتى » إلى «البستى» ـ نسبة إلى بُست ـ ويا بُعد ما بين سبتة وبُست !!

وفى حديثهما عــن «ابن بطوطة» وهــو بتونس عائــدًا من المشرق ؛ تحوَّل عنـدهما اسم « زيان بن أمـديون » العلـوى ، وزير السلطـان «أبى الحسن» وصهره وظهيره ، إلى « ابن أمريون » بالراء عوض الدال .

وفى موضع آخر؛ تحول اسم « الآبلى »، نسبة لآبلة (AVILA) فى الأندس، إلى « الأُبُلِّـىّ » ، نسبة إلى الأُبُلَّة فى البصرة !

والملاحظ أن هـذه الهفـوات وقع فى معظمهــا جُلُّ الـذين اعتمـدوا على النسخة الفرنسية من الناشِـرَيْنِ اللاَّحِقَيْن على ما سنرى . . . ! وقد كان من غريب ما وقع فيه المترجمان ؛ أن تلتبس عليهما فى البـداية كلمة « الصاحب » التى كــان يقصـد بها «ابنُ بطــوطـة» : «الصـــاحبَ بن عبــاد»، بكلمـة «الصاحب» التى تعنى الصديق !

لنقرأ هـذه الفقرة فى الرحلة تعليقًـا على أن ماء مدينـة البصرة غيرُ جيّد ، قال «ابن جُـزَىّ» : « ألوان أهل البصرة مصفَـرة ، حتَّى ضرب بهم المثل ، قال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدى «الصاحب» أُتْـرُجَّـة :

للـــه أتـــرجٌّ غـــدَا بيننـــا	مُـعَـبِّرًا عـن حالِ ذى عَبْـرَةِ
كما كســا اللـهُ ثيــاب الضّنــا	أهل الهَوى وسـاكنى البَصْرَةِ ! »

الشاهـد عندنا فى « أَحضرتُ » ، الهمـزة مضبوطة عنـد الاثنين بالفتح ، وقد تُرجمت هكذا :

Un poête de mes amis , à qui je présentai un citron composa ces vers:

ومن هـذا المعنى نذكـر التباس كلمـة « السِّفر » ـ بكسر السين وتسْكين الفـاء ، بمعنى الجـزء أو المجلَّد ـ بكلمـة « السَّفَر » بفتـح السين والفـاء . . التبس ذلك على بعض التراجمة الإنجليـز؛ فكـان فى بعض الأحيـان يترجم كلمة السِّفر بـ (Journey) ! !

ومع كلّ هذا؛ فإنه لا يسعنا إلا أن ننوه بالعمل الجادّ الذى قام به التراجمة من مختلف الجنسيات من أجل بعث رحلة «ابن بطوطة» من مرقدها وجعلها فى متناول الجميع ، وبمختلف الوسائل .

والحقيقة أنّنـى لم أسمع فى الدنيا عـن رحلةٍ نُقِلت من لغتهـا الأصلية إلى لسانٍ ثان ، ثم تُرجمت من ذلك اللّسان الثانى لتعود إلى لغتها الأولى بصياغةٍ حـديثة . ولقـد تحقق ذلك فى رحلـة «ابن بطوطـة» ، التى تـرجمها « غِيرْمُـو غوسطـافينو » عن الإسبانية بأسلـوبه العَربى الـذى كان يرى أنّه أكثـر إثارة وَأَوْفَى إشارة .

وقد لَذَّ لى ـــ وأنا أزور دول القارة الأمريكية التى لم يصلها «ابن بطوطة» ـ أن أبحث عمّا إذا كان له صدًى هناك ، ولشدَّ ما كان استغرابى وأنا أقف على عشرات البحوث التى كتبها أمريكيّون ، بل وأستراليون ، عن هذه الرّحلة العظيمة التى لن ينتهى الحديث عنها .

اهتمام العــرب بالرحلة

والآن وقـد ألممنـا بعض الشيء بعمل المستشرقين من أجل رحلـة «ابن بطوطة»، نـرى من المفيد أن نخصص هـذا الحيّز لما قـام به الـزملاء العـرب كذلك من جهودٍ متنوعةٍ مشكورةٍ للاستفادَة من الرحلة . . .

وأرى من المفيـد ـ منـذ البـداية ـ أن أُذكِّـر بأنـه بالرغم مما ظهر فى المشرق مـن طبعات عـديـدة للرحلة من أواخـر القـرن الماضى ، وبالضبط منذ سنة (١٢٨٨هـ = ١٨٧١م) إلى اليوم ، فإن كل تلك الطبعات ـ وبدون استثناء ـ إنها كانت منقـولةً من الطبعة البـاريسية ، أى إنه لا يـوجد ناشرٌ واحـد قام بمبادرةٍ من عنـده للاعتماد على مخطـوطاتٍ جـديدة غير التى اعتمـد عليها الناشران الفـرنسيان : «دِيفْـريميرى» و«سانكينتّى» ، بل لم نجـد واحدًا من زملائنا مَنْ كَـلَّـفَ نفسه حتى زيارة مـركز المخطوطات البـاريسيـة للاطلاع على تلك المخطوطات ، للقيام ببعض المقارنات والمفارقات . . . !

ولكُثر ما اعتمد الناشرون على الطبعات السائرة ، وجدنا بعضهم يقتصر على اعتماد هـذه « الطبعـات » فيما تـرسمه وتكتبـه ، فيقـول مثـلاً : بعض الطبعـات ترسمـه كذا ، وبعضهـا تكتبـه كذا ، وكأنَّ الأصـول المخطوطـة مفقودة !

وفى مصر التى تعتبر ـ على مـرّ العصـور ـ بحقٍّ رائدة الفكر ، وعاصمـة الكتاب العـربى ، فإن الرحلـة لم تشتهر فيهـا إلا عندمـا صدرت كـاملةً فى بـاريس فى عـام (١٨٥٣ هــ = ١٨٥٨م) ، فهنـا تحركت الهمم لطبعهـا بمصر ، نقلاً ــ بالحـرف ـ من الطبعـة الفرنسية . ونقـول بالحـرف ونحـن نقصـد إلى أن الناشرين التَّـابعين لم يبذلـوا أىَّ جهد حتى فى تصحيح نسبـة الديباجة لـ «ابن جُـزَىّ» ، وليس لـ «ابـن بطوطة» ، على ما ندركه من قراءة السطور الأولى للمقدمة .

وقـد تَـمَّ هـذا الطبع أولاً بمطبعة «وادى النيل» بتصحيح «أبى السعـود أفنـدى» فى منتصف جمادى الثـانيــة من سنـة (١٢٨٨ هــ = أول سبتمبر ١٨٧١م) ، على أصله المطبوع ، مع تـرجمته بالفرنساوية بمـدينة باريس فى سنة ١٨٨٥ ميلادية ـ كما تقول هذه الطبعة .

وتحـركت فى بداية هـذا القـرن (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤م) همـة أحد أبنـاء فـاس ، فتطـوَّع الشريف «مـولاى أحمد بن عبـد الكـريم القـادرى الحسنى المغربى الفاسى» بطبع الرحلة من جديد ، وكان عليه ـ هو الآخر ـ أن يعتمد على النسخة المطبوعة بمصر المعتمِدةِ بدورها على طبعة باريس .

لقد عرفنا لـ «الشريف القادرى» بعض المبادرات المماثلة عندما طبع على ذمتــه (كشْف الأسرار عن علم الغُبَــار) لــلإمـــام «القلصـادى» فى عــام (١٣١٨هــ = ١٩٠٠م)، وعنـدما طبع كـذلك على ذمَّتـه (مختصر الشيخ خليل) فى الفقه المالكى فى عام (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤م) بـالمطبعة الحجرية بفاس .

ولعلَّ «الشريف القادرى» تعذَّر عليه أن يقوم بطبع رحلة «ابن بطِوطة» فى

مطابع الحَجَر بفاس ، فقـام بهذه المبادرة الجرِّيئة واتَّصل بمصر التى ظهرت فيهـا هذه « الطبعـة الثـانية » للـرحلة بمطبعـة (التقـدُّم) بشارع محمـد على بالقاهرة فى يوم ١٣ من ربيع الثانى سنة ١٣٣٢هـ (١٧ من يونية ١٩٠٤م)، ولكن مع حذف أن الأصل هو الطبعة الباريسية ، كما فعلت من قبلُ مطبعة (وادى النيل)!!

وقد ظهرت بالقـاهرة طبعة ثالثة فى عام ١٩٢٨م عـن المطبعة الأزهرية : جزآن فى مجلـد واحد ، أشرف عليها ابن الشيخ «حسن الفيـومى إبراهيم» ، ونعتها بـ« الأولى » !

ولم تقف الرحلة فى مصر عند هذا الحد ، فقد رأت وزارة المعارف المصرية ـ على مـا يؤكده المستشرق الرّوسى «كـراتشكوفسكى» ـ أن دراسة الـرحلة فى المدارس ممـا يساعـد أبنـاءَ مصر على توسيع مـداركهم وإثـراء معلومـاتهم . وهكذا عهدت الوزارة فى سنـة ٣٥٢ هـ (١٩٣٣م) إلى اثنين من كبار رجال التعليم فى أول هذا القرن بالاهتمام بالرحلة وإعدادها لتصبح ضمن المقررات المفروضة على طـلاب المدارس الثانوية ، كما عهـدت إلى الشيخ «محمد فخر الدين» بوضع خرائط لها ، فكان كتاب (مهذَّب رحلة ابن بطوطة) .

ونرى من المفيد هنـا أن نشير إلى النقد اللاذع الذى لقيـه كتاب (مهذّب الرحلـة) من لَدُن عددٍ من الباحثين ، كـان منهم زميلنا الراحل ، الـدكتور «حسين مؤنس» الذى يقول : « وهل هناك أدلّ على الجهل بقيمة رحلة «ابن بطوطـة» من أن تُمسخ فى صورة « مهذّب » يستعمل كتـاب مطالعة لتـلاميذ المدارس؟ . . ولا نـدرى كيـف يمكن أن يُهَذب وصف رحلـةٍ على هـذه القيمة؟وما هى الأجزاء التى ينبغى استبعادها حتى تكون الرحلة مهذّبة؟» .

وإلى جانب هذه الطبعات المصرية ، وجدنا بيروت بدورها تُولى اهتمامها لرحلة «ابن بطوطة» . وكان أول ما لفت النظر للرحلة ، حسب علمنا ، سلسلة (الروائع) لـ «فؤاد أفرام البستانى» فى طبعتها الأولى (يونية ١٩٢٧م) حيث توالت طبعاتها فيما بعد . وقد قدمت سلسلة (الروائع) «ابنَ بطوطة» عبر رحلته (تحفة النظار) فى ثلاثة كتيبات صغيرة .

ومن هنا تحركت (دار صادر) لتُقدم إلينا فى عام ١٩٦٠م طبعتها الكاملة للرحلة ، ثم نافست (دارُ الكتاب اللبنانى) (دارَ صادر) ، فنشرتها كذلك فى نفس عام ١٩٦٠م .

ونرى من المهم أن ننبه هنا إلى سابقةٍ خطيرة ، تلك أن الناشر فى (دار صادر) أقدم على حذف الكلمات المتعلقة بضبط وشكل الأسماء الجغرافية ! هذا الضبط والشكل الذى يذكره المؤتمر العالمى لتنميط الأعلام الجغرافية التابع للأمم المتحدة على أنه من مناقب رحلة «ابن بطوطة» ومزاياها ! !

ومن الواضح أن صنيع (دار صادر) هذا يُعَدُّ بدعةً منكرةً لا تتفق وأهداف البحث الذى يعتبر أن ضبط الأسماء نوعٌ من التوثيق الذى تفرضه الأمانة العلمية . وإذا كان الأوروبيون يستغنون عن ضبط الأسماء الجغرافية والشخصية ، فلأنَّ كتابتهم تقوم مقام الشكل الموصوف فى اللغة العربية .

هذه علاوة على حذف بعض الجمل التى رأت الدار أنها لا تليق بالأحوال الجارية اليوم ! وعلاوة على بعض التعليقات فى الهوامش ، التى تظل بعيدةً عن مفاهيم الأسرة الإسلامية والبيئة المغربية .

ومن الملاحظ أن (دار الكتاب اللبنانى) سارت فى نفس اتجاه (دار صادر) ، فقد استغنت عن ضبط الأسماء الجغرافية والأعلام الشخصية

تقليدًا لزميلتها (دار صادر). بل أكثر من هذا ، فقد قامت هذه الطبعة هى الأخرى بحذف بعض الفقرات ، بل وبعض الأشعار التى لم ترُقْها من الرحلة ظلمًا وعدوانًا ، على نحو ما كان قام به المستشرق البرتغالى الأب «أنطونيو مُورا» سالف الذكر ، وقام به كذلك العالم الإيرانى ، الدكتور «على موحّد» .

لقد حُكى عن «الجاحظ» أنه صنف كتابًا وبوَّبه أبوابًا ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء ، فأحضره «الجاحظ» وقال له : يا هذا ! إن المصنِّف كالمصوّر ، وقد صورتُ فى تصنيفى صورةً كانت لها عينان فعوَّرتها ، أعمى الله عينيك ! وكان لها أذنان فصلمتَها ، صلم الله أُذنيك! وكان لها يدان فقطعتها ، قطع الله يديْك ! حتى عدَّد أعضاء الصور. . . فاعتذر إليه الرجل وتاب إلى الله من المعاودة .

وقد ظهرت بمصر فى عام (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤م) عن (المكتبة التجارية الكبرى) طبعة أخرى للرحلة ، وذُكر على أول صفحة فيها أنَّها «رُوجعت وصُححت على عدة نسخ صحيحة ، بمعرفة لجنة من الأدباء » .

وقد أغرانى هذا الإعلان ، فشددتُ الرحلة لطلب هذه الطبعة المصحّحة على عدة نسخ ومن طرف ثلة من الأدباء الذين لم يذكر منهم اسم واحد ، لكنها كانت نسخةً طبق الأصل من كل النسخ التى صدرت بمصر ، فهى تبتدئ بالخطأ المشهور الذى يَنسب المقدمة لـ «ابن بطوطة» مع أنها لـ «ابن جُزَىّ»، ثم تسير على نحو سابقاتها فى أغلاطها ! والفرق الوحيد بينها وبين سابقاتها أنها تجعل الكلمات التى تشكل الأعلام الجغرافية بين هلالين، مثلاً: بلاد (البَرهْ نكَار) يقول عنها مصحّحها : (وضَبْطُها بفتح الباء

الموحـدة والراء والنـون والكـاف وسكـون الهاء) . وهذه الطبعـة عبـارة عن جُـزأَيْن فى مجلد واحـد . وقد ختم المصححون « السِّفر الأول » بإيـراد تذييل لـ «ابن خلـدون» حـول «تناجـى الناس» ، وحـول اتصـالـه ـ أى «ابـن خلدون» ـ بالـوزير «ابن وُدرار» . . . فى حين ختـم السِّفر الثانـى بالتنـويه «بالحاج مصطفى محمـد ، صاحب المكتبة التجاريـة الكبرى ، شارع محمد على » . وقد وافق التمام أوائل شهـر رجب من عام (١٣٧٧ هـ = ٢٢ ينـاير ١٩٥٨م) . هذا، وقد صدرت طبعة أخـرى عن(المكتبة التجارية الكبرى) فى عام (١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م) .

وفى سنـة (١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨م) صـدرت عن (دار التراث) فى بيروت نسخة جـديدة ، مـزيَّتُها فقط أنها تنسـب المقدمة لصـاحبها «ابـن جُـزَى» وليس لـ «ابن بطوطة» ، والباقى جارٍ على سنن الطبعات السابقة .

وقد ظهرت طبعـة جديدة للرحلـة فى عام (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢م) عن (مؤسسـة الرسـالة) فى بيروت ، رأَى زميلٌ لنـا عزيـز أن يقوم بتقليـد صنيع الناشرِين فى لبنان، وهكذا حذف العبـارات التى تضبط الأعلام الجغرافية ، بل وقـام باجتهـادٍ جديـدٍ ، وهـو أنه جـرَّد أقوال «ابن جُــزَىّ» من صلب الرحلة وجعلها فى ذيـولٍ على حِدَةٍ ، نظرًا لكون فائدتها ـ فى نظره ـ ثانوية ! وقـد سلـك هـذا الصَّنيع أيضًـا فى بعض النصـوص التـى وردت فى أثنـاء الكتاب . ومعنى كلّ هـذا أن الرحلة التى عـرفها الناس أيـام السلطان «أبى عنان » راحتْ لتُعوِّضها رحلةٌ أخـرى بترتيباتٍ أخـرى .

وقد أتعب مثلُ هذا الصنيع أصحابَه ، فلم يستطيعوا الالتزام به ، ابتداءً من أول فقرة فى الرحلة عندما استهل «ابن جُـزَىّ» مقدمته بقوله : « الحمد لله

الذى ذلل الأرض لعباده ليسلكوا فيها سُبلاً فجاجًا . . . » إلخ . فهل لم يكن من واجب هؤلاء الزملاء ـ وقد قرروا فصل كلام «ابن جزى» عن الرحلة ـ أن يجعلوا المقدمة ذيلاً كذلك ؟ ! . . هذا إلى هفوات بالغةٍ لم يُنتبه لها ؛ مثل كلمة « التارات » فى المقدمة التى تحولت إلى « القارات » ! وكلمة «الفارسية» التى تحولت كذلك إلى « الفاسية » !

وما كان لى أن أتحدث عن هذه الهفوات التى افترضتُ أنها مطبعية لولا ما أدَّت إليه ، حيث جاء بعد هذا أحد زملائنا من لبنان فقام باجتهادات أخرى ، وهكذا اعتمد على زميلنا الذى أشرنا إليه من غير أن يرجع إلى أصول الرحلة ، ونقل عنه منهاجه فى الاستغناء عن ضبط الأعلام ، وحذْف تعليقات «ابن جُزَىّ» من صلب الكتاب لتصبح فى الهامش . ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، ولكنه تجاوزه إلى إعطاء « تفسيرات » غير صحيحة تمامًا لبعض الهفوات الواقعة فى الرحلة المنقول عنها ! . . مثلاً : فَسَّرَ هذا الباحث القصد من كلمة « القارات » ـ مع أنها « التارات » وليس القارات ـ بأنها إفريقيا وآسيا وأوروبا ، مضيفًا إلى هذا قوله : « إن أمريكا وأستراليا لم تكونا قد اكتشفتا بعد » ! وفسر القصد من كلمة المملكة « الفاسية » ـ مع أنها « المملكة الفارسية » ـ بأنها « مملكة مدينة فاس » ! ! وبدَّل هذا الناشر بعض العبارات التى لم تعجبه فى الرحلة على نحو ما فَعَل سلفه . وأخيرًا ظهر له أن يستغنى عن العناوين التى جعلها «ابن بطوطة» لكتابه ، وابتكر هو عناوين أخرى .

ومن الإنصاف أن نقدر الجهد المضنى للأستاذ «طلال حرب » فى محاولته ـ لأول مرة ـ لإعداد فهارس متنوعة ، وكنت أتمنى أن يتسع صدره لمراقبةٍ أكثر للكُنى والألقاب ، وللتحرى فى التعريف بالأعلام

الشخصية ، والتصدّى للأخطاء المطبعية التى كانت أحيانًا ضحيتَها أيضًا !!

وقد وقفنا أخيرًا على طبعة للرحلة صدرت عن (دار إحياء العلوم) ببيروت فى سنة (١٤١٢ هـ = ١٩٩٢م) ، وكانت بتقديم وتعليق الشيخ «محمد عبد المنعم العريان» ، وقد اعتمد فى عمله على ما صدر من بعض الطبعات السابقة على ما أسلفنا .

* * *

ويبقى أخيرًا أن نذكر أن رحلة «ابن بطوطة» ألهمت بعض الكُتَّاب العرب المعاصرين فنسجوا على منوالها رحلةً خيالية ابتدعوها تحت عنوان : (رحلة مغربى إلى حضرموت)، وحاكوها بدقة وذكاء حتى مرّت الحيلة ـ ردحًا من الزمان ـ على بعض زملائنا ، لا سيما أن ذلك المخترع قد برع فى إضفاء حلة البرود اليمانية على البرانس المغربية !!

ومن السادة الذين تصدوا للرحلة ـ وهم كثير كثير ـ مَن تجنّب نشرها حَرْفِيًّا ، وتحقيقها على الطريقة المعهودة فى كتب التراث ، واكتفى بعرضها ، أى إنه كان يحكى عن «ابن بطوطة» ، ويتحدث عنه حديث الغائب ، وبأسلوبٍ غير أسلوب «ابن بطوطة» .

وقد برَّر بعضهم هذا الصنيع بأنَّهُ نوع من « التعريب » ، أى نوع من ترجمة الأسلوب القديم إلى « الأسلوب الحديث » ، وقد استأنس هذا البعضُ فى ذلك بصنيع الدكتور «طه حسين» فى كتابه (صوت أبى العلاء) عندما قال : « وما دام جمهور المثقفين يَعْظُمُ ويَضْخُمُ من يوم إلى يوم ، فلا بد أن

لتـرّب إليهم أدبنا القديم . . . فليس كلُّ الناس قادرًا على قراءة اللُّزوميات ، والفصول والغايات ، ورسالة الغفران وفهمِها . . . وإلا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم ، وأصبح مكـانُ الأدب العربى القـديم من المثقفين مكانَ الأدب اللاتينى من الفرنسيين والإيطاليين » . . .

ويُلاحظ أن بعض الناشرين فى المشرق لم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عن بعض الكلمات المغربية الواردة فى الرحلة ، فأطلقوا العنان لاجتهادهم الذى أخطأ الصواب فى بعض الأحيان .

وسأكتفى بسرد طائفةٍ من الألفاظ معتمـدًا على القارئ فى العودة إليها : كلمة (مِتّيجة) ، وهى عَلَم جغـرافى كما هو معلوم ، وليست اسمًا لأداةٍ من أدوات النقل فى المغرب كما زعمـوا . وكلمة (القَـبْــرية) التى هى عبارة عن شـاهد القبر الـذى يُسجل فيـه اسم الميت وتـاريخ وفاتـه ، كتبـوا عوضهـا (التَّبــريـة) وقـالوا : إنها نسبـة إلى (التِّبـر) أى الـذهب ، وقد تكـون من النحاس أو الحديد أو الرصاص!

وقـد استشكل بعضهم كلمـة (الظهير) التى تعنى فى المغـرب ـ كما هـو معلـوم ــ المرسـوم الملكى . ولفظ (الشَّكارة) الـذى يعنـى فى المغرب ظـرفًا من الجلـد تـوضـع فيـه النقـود مثـلاً ، وليس إنـاءً على كـلِّ حـال . وكلمـة (الفرَجِية) ليست ضربًا من الأقبية ، ولكنها لباس . . وهى لفظ مغربى على ما يـؤكد «دوزى» فى كتـابه (معجم الملابس) . وكلمـة (أَفراج) : تعنى فى المغرب مجموعـة خيام سَكَنية متنقلة تكون صحبـة الركب الملكى ، والكلمة بربرية ، وقـد ورد ذكرها مرارًا فى المصادر المغربيـة . أما عن (التهليل) فإنه ظرف يُجعـل فيه (المصحف) ــ وربّما (دلائل الخيرات) ـ كتعويـذة ، وليس القصد إلى قطعـة ذهبٍ على شكل الهلال كما ظنوا . و (المجْشر) ويجمع على

مجاشر ـ وقد يُـحَـرَّف إلى (مداشر) ـ لا يعنى فى المغرب الحوض ، ولا المبلغ من المال، ولكنه يعنى مجموعة سَكَنية فى البادية . هذا إلى كلمة (السّنداس) ألتى تعنى فى المغـرب ثقب المرحـــاض . وكلمـة (المصريـة) التى تعنى فى المغرب (البيت المنعزل) الذى يأوى إليه شباب الأسرة مثلاً ، ويكون ملحقًا بالدار التى تسكنها العائلة. وكلمـة (التَّـبْـريح) فى المغرب تعنـى الإعـلام العَـلَنــى ؛ من مثل: برَّحـوا بـالملك على أنَّـهُ سيقـوم بسَفَرٍ نحـو جهةٍ من الجهــات ، بمعنى : أعلمــوا بـه وأشهــروه ، وهـــذا المعنى فــات بعض النــاشرين، ففسَّـــروا التبريح بأنـه الضَّرب المبرّح ، وهذا معْنى لا صلـة لـه بـالموضـوع . وكلمـة (أزواج الحرث)؛ وجد الأستـاذ «كـرم البستـانى» أنها تحريف لكلمة (إزْواح) ، وانطلق يـؤوِّل ! وكلمة (القِيِّــرة) يستعملها «ابن بطـوطة» و«ابن خلـدون» على أنها مقتبسـة من الكلمـة الإسبانيـة (الكَيرة) بمعنى الحرب، حـوَّلها «البستانى» إلى كلمـة (الغُزاة) . . . ! و (البحـائر) التى هى جمع لبَحِيرة، على وزن سفينة ، جعلها جمعًـا لبحرة . و (صاحب العَلاَمـة) التى تعنى لقبًا حضاريًـا يعنـى الموظف السامى فى الدولـة الذى يُعهد إليه ـ بعـد أن تحرر الرسالة الملكية ـ بوضع العَلاَمـة السلطانية عليها ، هذا المعنـى خفى على بعضهم ، فحول العبـارة إلى (الصاحب العـلاَّمة) !! بالـرغم من أن المشرق عرف أيضًـا هذه الـوظيفة ــ على ما فى كتـاب (بدائع الزهور) لـ «ابن إياس » .

ولا يفـوتنى بعد هـذا أن أضيف إلى ما ذكـرتُه : أن سـائر الذين اهتمـوا بالرحلة لم ينتبهوا إلى أن الشعر الفارسى الذى طالب أمير أمراء الصين بغنائه وترديده مـرارًا حتى حفظه «ابن بطوطة» من أفـواههم هو بيتٌ واحد للشيخ «سعدى» من قصيدة مشهورة ، وليس بيتين مـن بحر الرجز كما ظن البعض ذلك .

اهتمام الدراسات النقدية بالرحلة

لقد بقيت رحلة «ابن بطوطة» بعيدةً عن كل نقد وعن كلّ تعليق ـ عدا ما حكيناه عن «ابن الخطِيب» ، و«ابن مرزوق» ، و «ابن خلدون» ـ حتى قيض الله لها من بعض المستشرقين من قام بمتابعتها وتعقبها . وقد ابتدأت الدراسات النقدية فى الواقع منذ اليوم الذى نُشرت فيه الأطراف الأولى من الرحلة فى بعض البلاد الأوروبية .

ومن أشهر من تناولها بالنقد ـ بعد الناشِرَيْن الفرنسيَيْن ـ السير «هاميلتون جب» ، والعلاَّمة التشيكى «إيفان هربك» ، والباحثان الفرنسيان : «فانسان مُونطِى» ، و«ستيفان ييرَازيموس» ، و«رُوس دان» الأستاذ بجامعة ولاية سان دييجو ، وآخرون غير هؤلاء .

وهكذا توفَّرنا على دراساتٍ نقديةٍ أثرتْ رحلة «ابن بطوطة» ، وأثارت انتباه الباحثين إليها من سائر جهات المعمورة وبكل لسان .

لقد تتبَّعوا تلك المذكّرات من خلال عدد من المقاييس والمعايير ، مثل ضبط التَّواريخ التى يوردها مقارنةً بأسماء الأيام التى يذكرها : يوم الاثنين مثلاً ، وهل بالفعل يتطابق مع تاريخ اليوم السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة الذى ذُكر تاريخًا لميلاده ؟

وهناك حديث «ابن بطوطة» عن شدّة البرد فى شهرٍ قمرىّ (شوال مثلاً)، فى حين أن هذا الشهر كان يوافق يونية أو يولية الذى نعتاد فيه الحر .

وهم يَتَقَفَّوْنَ أثره وهو يجتاز بعض البلاد مثلاً ، فلا يذكر تاريخًا ليوم ولا لشهر ولا لسنة ، وبذلك يتركنا فى غموضٍ من أمر التسلسل الزمنى .

وقد حاسبوه على ذكر بعض الأحداث فى غير محلّها ، وأنه يحكى فى الرحلة السابقة ما حصل له فى الرحلة اللاحقة ، على نحو ما حكاه عن «الشريف أبى غرة» وهو فى النجف ، فى حين سَيسمع الحكاية عنه وهو فى الهند، وما حكاه فى زيارته الأولى عن الطاعون بدمشق .

وقد حاسبوه فيما روى عن بعض الشخصيات واتّصاله بها ، فى حينٍ كان يستحيل عليه ذلك ! هذا إلى إهماله لذكر أسماء الحُكام فى بعض الجهات التى زارها ، مع أن عادته جرت على أن يُعطى الأولوية لزيارة المتنفّذين والمسئولين عن البلاد . ولم يتردد بعضهم فى اتهام «ابن بطوطة» بأنه كان أحيانًا «يصطنع» الرحلات ، ويتقمص شخصياتٍ أخرى ، فينسب له ما كان لتلك الشخصيات . . . كل هذا إلى إهماله لذكر بعض المشاهد والمزارات التى كان من المفروض أن تكون مقصودةً من لَدُنْهُ ، مثل إغفاله لذكر مزارة الشيخ «عبد القادر الجيلانى» فى بغداد !

وقد كان فى صدر ما أثار انتباهنا حقًّا تلك الطّفرات والقفزات التى سجلت على الرجل فى بعض المناطق التى كنا نصحبه فيها مرحلةً مرحلة . كنا نشعر فى بعض الأحيان وكأنه ركب طائرةً ليحلّق فيها من محطة إلى أخرى بعيدًا عن الأنظار ، وكم بذلنا من جهدٍ حتى نتعرف على خطوط سيْره ! !

لقد انشغل عن تعداد المراحل عندما انتقل من بغداد إلى تِبريز عاصمة

الإيلخـان ، ولعل مصـاحبتـه للسلطـان «أبى سعيـد» كـانت وراء اختفـاء شخصيته ، فانشغل بغيره عن نفسه ، وكثيرًا ما يحدث هـذا ، وَلاَ يُـنَـبِّـئُـكَ مِثْلُ خبير ! وكذا كان حاله فيما بين ماردين وبغداد . . .

ومن الوثبات المحيّـرة التى لم نعرف لها طريقًا ، الوثبـة التى كانت له من جنوب الروسيـا إلى شمال تركيا . هل وصل صحبـة الخاتون عبر الصحراء أو عبر الدانوب ؟ لقد اختفت شخصيته رفقـة الأميرة أيضًا . ومن ميلاس غربًا جنـوب الأناضـول إلى قونيـة شرقى شمالها ، ثم من أرز الـروم شرقًا إلى بِـركى غربًا ، لم نستطع تقفى آثارِه ، وفى شرق إفـريقيا أيضًا ، لم نستطع مصاحبته وهو يتحرك من كلوة إلى ظفار بحرًا .

وفى طـريق «ابن بطوطـة» من مكة بصحبـة الأمير «البَهْلُوَان» عن طـريق المدينة حتـى يصل للعراق عن طـريق حصن فَـيْـد ـ وهو الحائل ـ انشغل أيضًا عن تناول القلم والورق على نحو ما كـان منه وهو يرافق ركب السلطان «أبى سعيد» من بغداد إلى تبريز ، وركْبَ الخاتون إلى القسطنطينية العظمى .

وهو فى الأردن سلك طريقه من الجيزة إلى بُصرى الشام ، وهو طريق غير مسلوكٍ اليـوم . ولو أنه سافـر على الطريق المألوف لكان عليـه أن يجتاز على عَمان قصبة البلْقاء ، عاصمـة المملكة الأردنية الهاشمية حاليًا على مـا يؤكده الزميل الأستاذ الـدكتور «ناصر الدّين الأسد» فى بحثـه المقدم إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى دورة ١٩٩٦م .

وقـد لاحظ زميلنـا الراحل السفير «خليل الله خليلى» وهـو يتحـدث عن «ابن بطوطة» فى أفغـانستان ، طفرةَ الرحـالة من بلخ إلى أن وصل إلى هرات ، وتساءل : أىَّ طريق سلكه؟ هذا علاوة على وثبة بسطام إلى قندوز وبغلان .

وعنـدما عبر نهر السنـد مع «عـلاء الملك» إلى العـاصمة لأهَـرى ، من الحدود الشمالية الحالية وفى اتجاه جنوب البلاد ، هناك لم يستوعب المحطات النّهرية التى كان يمر بها وهو فى شرق الصّين ابتداء من مضيق فرموزة وعبْـر النهـر الأعظم والنهر الأصفـر وآب حياة . . . كـان كسولاً فى تتبع محطـات سَـيْـرِه ، ولكأنما كـانت الصين صحـراء قفـراء ، لا ذكر لبعض الأطعمـة الصينية وأشربتها ، وفى صـدرها الشاى الذى كـان انتشر على ذلك العهد ! لكن الوثبـات الكبرى هى التى سجلت عليه ، وقـد قرر أن يعـود إلى بلاده المغـرب عنـدمـا أنهى زيـارتـه للصين ورجع من حيث أتى دون تـدقيقٍ ولا تفصيل . فمـن مدينـة الزيتـون ـ حيث عشرات الجنـوك ـ عبْـر الجاوة ، ثم طـوالسى ، وسُمَطْـرَه حيث حضر أعـراس الأمير ولـد الملك «الظـاهـر» فى الجاوة ، ثـم إلى ظفار ، وفارس ، والعـراق ، ثم الحج السادس والأخير قبل أن يعود إلى المغرب . . . كان يمر سريعًا ، وكأن وراءه ما يمنعه عن الاسترسال فى الحديث .

وقد لاحظ «جِب» ـ ومعه «هربك» ـ أن أمير شيراز لا يمكن أن يكون فى عام (٧٢٧ هـ = ١٣٢٧م) هـو «أبا إسحاق بن محمد» الـذى حكم من عام ١٣٤٣م إلى عام ١٣٥٧م . وهكذا نجد مرة أخرى أن الرحالة المغربى يمزج مشاهداته عند الذهاب بمشاهداته عند الإياب . . . !

وعنـدمـا يـذكـر «ابن بطـوطـة» أنـه زار هـرمـز فى عـام (١٧٣١هـ = ١٣٣١م) ، يعقّب «هـربك» أيضًا بأن الـرحالـة المغربى إنما زار هـرمز عنـد عودته من الهند والصين فى عام ١٣٤٧م !

وعندمـا وَصَلَ «ابن بطوطة» لمدينـة (العلايا) أول بـلاد الروم ، أمسك

«هربك» بتلابيبه ، وضبط بالعدّ والحساب أنه زار ٢٩ محلة فى أنطالية ، انطلاقًا من العلايا، حوالى فاتح ربيع الثانى (٧٣٣ هـ = ديسمبر ١٣٣٢م) . . . وقد حاول العالم التشيكى أن يقوم بإعادة تمثيل خط السير ، فاصطدم بمصاعب وتناقضات . . . !!

وعندما تحدث «ابن بطوطة» عن استشهاد الأمير «عمر بك» ابن سلطان يَزمِير، عقّب «جِب» على ذلك بأن الأمير قام بغزوته الأولى فى الدردنيل فى عام (٧٣٢ هـ = ١٣٣٢م) ، وقد لقى حتفه فى شهر مايو (١٣٤٨م = محرم ٧٤٩هـ) . وهكذا فإن «ابن بطوطة» لم يمكنه أن يعلم باستشهاده إلاّ عند العودة من سفره . . .

وقد بيّن «هربك» أن «ابن بطوطة» ـ وهو فى سوريا ـ ذكر أنه زار أكثر من عشرين موقعًا خلال شعبان ورمضان (سنة ٧٢٦هـ = يولية وأغسطس ١٣٢٦م) . . . وهذا غير مقبول ، ولا معقول ! وهو الأمر الذى يؤكد أن الرحالة المغربى كان يخلط بين زياراته للأماكن فى المرة الأولى والثانية .

وقد حاول بعض الباحثين أن يُشَكِّكَ فى أمر وصول «ابن بطّوطة» إلى (اسطْنبول) ، لكن معظم الذين اشتغلوا بالرحلة لا يرتابون إطلاقًا فى وصول الرحالة المغربى للقسطنطينية العظمى .

وعلى نحو ذلك ؛ شكك بعضهم ـ من أمثال الدبلوماسى الشهير «كابرييل فيران» ـ فى زيارة «ابن بطوطة» للصين ، إلا أن كثيرًا ممّن عالجوا هذا الموضوع كانوا مقتنعين بأن الرجل زار فعلاً تلك الدّيار ، وأن الصينيين أنفسهم لا يشكون فى ذلك .

وفى خلال المحاضرة التى ألقيتُها بقسم الدراسات الشرقية فى جامعة بكين ، صيف عام ١٩٨٨م ، كنت أشعر بأننى أمام عددٍ من المثقفين الذين كانوا يدينون للرحالة المغربى بالكثير من المعلومات الأصيلة التى انفرد بها عَمَّا سواه ممن تحدثوا عن تاريخ الصين وأسطول الصين ، بمن فى أولئك «ماركو بُولو» ! وقد وضعوا خرائط لزيارته لبلادهم ، وهم يرددون اسمه على أنه رائد من روّاد الصّين الكبار .

وتبقى هناك ـ مع هذا ـ بعض المؤاخذات التى تستوقفنا حقًّا :

الأولى : قضية حضور «ابن بطوطة» لمجلس «تقىّ الدّين بن تيمية» وهو بدمشق، بعد أن كان وصلها فى يوم الخميس التاسع من رمضان سنة ٧٢٦هـ ، (٩ من أغسطس ١٣٢٦م) ، فقد أخبر أولاً عن سجن «ابن تيمية » وإطلاق سراحه ، ثم أخبر أنه وقع منه مثلُ ما استوجب سجنه أولاً، فسُجن مرةً ثانية . وقال : إنه حضر يوم الجمعة وشاهد «ابن تيمية» يعظ الناس على منبر الجامع ويُذكّرهم ، وإنَّ من جملة كلامه : أن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ، ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بـ «ابن الزهراء» . . . إلى آخر الحكاية . هذا مع العلم بأن «ابن تيمية» أودع فى السجن منذ سادس شعبان ، أى قبل وصول الرحالة إلى دمشق !!

فكيف يصحّ قول «ابن بطوطة» هذا مع تلك الفقرة التى نسبها لشيخ الإسلام فى تفسيره لحديث النزول بما هو من قول المجسِّمة المخالِف لمذهب السَّلف ، الذى يُعد «ابن تيمية» قطبًا من أقطابهم ؟

ونعتقد أن أحسن ما يمكن الجواب به عن هذا الانتقاد؛ ما عَقَّبَ به

زميلنا الراحل الأستاذ «عبد الله كنون» ـ رحمه الله ـ من أن الخبر وقع فيه تزيُّد من خصوم «ابـن تيمية» فرواه رحـالتنا على عـلاته . . . ولم يُـخْفِ الأستاذ «كنون» شكوكه فى صنيع النَّاسخ «ابن جُـزَىّ» ، الذى يجوز أنه توهـم حضور «ابن بطوطة» للواقعة المزعومة .

وقـد وقفتُ فى كتـاب (نيل الـديبـاج) لـ «أحمد بـابـا السـودانى» (ت ١٠٣٢هـ = ١٦٢٣م) عند تـرجمة «أبى زيد عبد الرحمٰن» وتـرجمة أخيه «أبى موسى عيسى» ، ابنى الإمام «البرشكى» ، أنهما رحـلا إلى المشرق وناظرا «تقى الـدين بن تيمية» الـذى كـانت له مقـالات يحمل فيهـا حديث النـزول على ظاهره ، وقوله فيه : « كنزولى هذا » ، قال صاحب الديباج : وهذه الزيادة ـ أعنى قول « كنزولى هذا » ـ أثبتها «ابن بطوطة» فى رحلته .

الثانية : هى تلك التى أثارت الكثير من التعـاليق : وهو سفره إلى مدينة (بلغـار) التى سمع بها وهو بحضرة السلطـان «محمد أوزبك خـان» ، حتى يرى ما ذُكر له عنهـا من تناهى قِصَـر الليل بها وقصر النهار أيضًا فى الفصل المعاكس ، وأنـه طلبَ إلى السلطان مسـاعدتـه للوصـول إليها ، وكـان بينها وبين محلة السُّلطان مسيرة عشرة أيام .

إن المسافة بين الموقعين ألف وثلاثمائة كيلومتر ، فكيف يصل إليها المرء فى عشرة أيام ؟ ولـــم يشفع لـ «ابن بطوطة» مـا نعـرفـه عن الإمكانـات المـادية للسلطان ، والتى مـن شأنها ـ كما خَـبَـرْنا ذلك ـ أنْ تتجـاوز المعـروف عند الإنسان العـادى ، ولهـذا أصـر المعلقـون على أن هـذه المعلـومة تحتـاج إلى مـا يدعمها .

أما المؤاخذات الأخرى الباقية فكانت تتصل ببعض الحكايات التى تتسم

بـالمبالغـات التى لا يقبلهـا العقل ، ونذكـر على سبيل المثـال حكايـة «ابن بطوطـة» عن الغواصين الـذين يبحثون عـن اللؤلؤ فى الخليـج فيما بين ميناء سيراف والبحرين ، فقـد ذكر أن فى الغواصين مَن يصبر الساعـة والساعتين فى الماء ، مع العِلم أنه لا يمكن تجاوز سبعين إلى مائة ثانية !

وقد كان زميلى الراحل الشيخ «عبـد الله الأنصارى القطَرى» يحكى لى ـ وهو مـمَّن زاولوا الغوص ـ أن الغـواصين كانوا يتنافسون فى مَدَى التحمُّل ، وقد نبَّهنى إلى أن قصـد «ابن بطوطة» ليس هو الغـوص تحت الماء طول تلك المدة ، ولكن أنَّ عمليـة النـزول إلى عمق البحـر والصعود منـه تستمـر تلك المدة . وهذا مـا وجدته فى بعض الترجمات الجديـرة بالثقـة ، وهو ما تـؤيده شهادة السيدين : «جمعة الماجد» ، و«سيف الغرير» ، وكانا أيضًا من رجال الغوص . . .

ولا بد أن نذكّر هنا بأن «ابن بطوطـة» هـو الذى كان بين الفينة والأخرى يشعر بأن بعض ما يرويه قـد لا يُقبل من لَدُنْ بعض العقول ، فيقول مثلاً ـ وهو يتحـدث عن مزاعـم النـاس حول شجـرة (دَرَخْت رَوَان) بسرنديب : «ولهم فى شأنها أكـاذيبُ يحيلها العقل » . وقـال عن مزاعمهم حـول مفعول أوراقها : « قالوا إن من تناولها عاد لـه الشباب ، وهو باطل»!! وقال ، وقد سمع الناس يتناقلـون حديثًا غريبًـا : « لم أذكره خيفة مُـكَـذِّبٍ به » . وقد سخر بعضهم من روايته لرؤية بعض النسـاء بثديٍ واحد ، فى حين طالعتْنا صور الأحداث اليوم بوجود إناث لهن ثلاثة أثداء!!

● **وملاحظة أخيرة** : فقد كنا نشعر بوجـوده فى مكانٍ مَّا من الأمكنة ، لكنه لسبب أو آخر يفقد قلمه ويعطل ذاكـرته ، فلا يحفل بما كان ينبغى له

أن يحفل بـه على ما أشرنـا ! وهكـذا ، ففى أثنـاء وجوده بمصر؛ أهمل ذكـر جامع «ابن طولـون» الذى تحدث عنه معظم الرحالة المغـاربة ، ولا سيما أنه كان للمغـاربة فيه «مأوى يسكنـونه ، ويحلقون فيـه ، حيث تجرى النفقات عليهم فى كل شهر» على حد تعبير «ابن جُبير» .

هذا إلى إهمال ذكـر رواق المغاربة فى الأزهـر الشريف . ورواقهـم ـ وهذا مهم ـ فى القدس ، وقـد تحدث عنه «علـوى» فى كتـابه (سفـرنامـه) . ولم يتحدث وهـو فى « سلا » عن الجامع الأعظـم ، فى الوقت الـذى تحدث فيه عن حسان التى لم يصعدها ، على نحو ما فعل فى الكتبية !

و«ابن بطوطـة» الذى تحدث عن الزيتـونة والأزهر، لم يلفت نظـرَه جامع القرويين الـذى كان كعبة لكبار العلماء ، وكـذا عيونُ الطلاب الذينِ كـانوا يسكنـون فى المدارس التى تحف بـه : مـدرسـة الصفـارين ، والعطـارين ، والمصباحية ، علاوة على إهماله البيمارستـان الذى يسهر على علاج الناس ، والذى كان موجودا بفاس على ذلك العهد .

و«ابن بطـوطـة» فى الأندلس أهمل ذكـر الجامع الأعْظم فى « رنـدة » التى كانت عاصمة الأمير «أبى مالك» ابن السلطان «أبى الحسن» .

لكنَّ الحقيقـة التى ينبغى أن نجعلهـا نصب أعيننـا ونحن نتتبع تلك التعقيبات ، هى أن تلك « التقييدات » التى جمعها «ابن بطوطة» قرابة ثلاثين سنة ، قـام «ابن جُـزَىّ» بتلخيصها فى أقلّ من ثـلاثة أَشْهُرٍ . ومتى كـانت ثلاثة أشهـر كافيةً لتغطية تلك الأعـوام ، واستيعاب ذلك العدد من الأسماء الجغـرافيـة ، والأعـلام الشخصيـة التى مـرت بـذاكـرة الـرحـالـة عبر تلك الأحقاب؟! يقـوم أحدنـا فى العصر الحاضر برحلـةٍ فى أمد معـروف البدايـة

والنهاية ، ولا يذكر بعد مرور بضعة أسابيع من رحلته بعض الأسماء التى مرت به ، فيأخذ فى الاستنجاد برفاقه فى الطريق ! !

وأعتقد أن «ابن جُـزَىّ» كان مستعجلاً أكثر مما ينبغى فى أداء مهمته ، وربما كان مشغولاً بمشكل صحى طارئٍ عليه ، وهو الأمر الذى عرَّضه للتصرُّف ، ودفع به إلى الاستغناء كليةً عن بعض « التقاييد » . ولا ندرى هل كان «ابن بطوطة» يجلس إلى جانب «ابن جُـزَىّ» ليراجع هذا «التلخيص» بعد تحريره ليعطى رأيه فيه ؟ مهما يكن ، فإن بعض التَّبِعَةِ تقع على الظرف القصير الذى حُدد للقيام بالمهمة .

و إذا ما أضفنا إلى استعجال «ابن جُـزَىّ» عنصرًا ثانيًا قرأناه فى أثناء الرحلة ، وهو الحسرة الجارحة التى كانت تحزُّ فى «ابن بطوطة» وهو يتحدث عن السَّطو الذى تعرض له فى الجزيرة الصغرى ، التى تقع بين هنور وفَاكَنَوَر ، حيث سلبه القراصنة جميع ما عنده من جواهر ويواقيت ، حتى الثياب والزّوادات ، وبالرغم من القيمة المادية الهائلة لما افتقده فى هذه الحادثة ، فإنه نسى كلّ تلك الثروات وكلّ تلك التحف ، ولم يبق عالقًا بذاكرته إلا « التقييدات » التى كان يُودع فيها معلوماتٍ عن الشخصيات التى تعرف عليها ، وعن التصانيف التى أَلَّفَتْها تلك الشخصيات ! ولم ينتظر للتعبير عن حزنه على ضياع تلك المذكرات الظرفُ الزمنى الذى وقع فيه الحادث ، ولكنه ـ والمذكرات أمرٌ ذو بال يشغله ـ استعجل بذكر ذلك عندما كان يتحدث عن علماء بُخارَى على ما سنرى .

وينبغى أن نضيف إلى كل هذا أيضًا مشاكل الترجمة التى لم يَفُتِ «ابن بطوطة» الإشارة إلى بعض أخطائها ، فقد كان يتلقى أخبارًا من المترجمين

والمرشدين الـذين يجدهـم أمامـه ليستعين بهم فيما يطلب من معلومـاتٍ كان يرويها كما سمعهـا ، فلقد قيل لـه ـ وهو فى بيـزنطة ــ عن النبى «إلياس» ، الذى يُنطق به عندهم (Elie) ، فظنه « علىّ » . . واستغرب هو من ذلك ! !

ولكن المهم ـ بعد هـذا وقبل هذا ـ أن سائر الـذين تعقبوه وانتقدوا بعض مقاطعه وفقراتـه ، أجمعوا على إكباره وتقديره ، وعلى براعتـه فى طريقته لجلْب القراء بما كان يختاره من بديع النكتـة ودقة التعبير ، وبما كان يتخذه شعارًا له من الصراحة فى القول ، مما لا يجرؤ أحدنا اليوم ـ فى الغالب ـ على الجهر به ، فهو يواجه الأمراءَ بما قد لا يرضيهم ، وهو ينصف المستحقين منهم ، ولو أنه كان بعيـدًا عنهم ، وهو فى الأخير متحفظ فيما يرويه إذا لم يكن مقتنعًـا به ، حيث نجده « يخرج عن العهدة بما يُشعر مـن الألفاظ بذلك » على حدّ تعبير «ابن جُـزَىّ» ، الذى عرفه حقَّ المعرفة .

لقد كانوا جميعًـا يتفقون على أن «ابن بطوطة» هو الـرحالة الأمين ، الذى كانت مذكـراته تتميّز عن غيرها بما يحسه القـراء ولا يستطيعون التعبير عنه ، سواء أكانوا يعيشون فى أُوروبا أو آسيا أو إفريقيا . .

أهميـة النقـوش فى الرحلة

وأحب أن أثير الانتباه هنـا إلى عنصرٍ فى الرحلة كافٍ وحـده للتأكيد على جـدّيتها وصـدق أخبارهـا ، ويتعلق الأمـر بالنقـوش التى كان يقف عليهـا مكتـوبةً على لـوحةٍ خشبيـة أو قطعـةٍ من حجر أو رخـام ، فكان يسجلهـا ويحفظها ، وقد أمست بالنسبة إلينا اليوم بمثابة وثيقةٍ حية تؤكد ما كان يرويه الرجل قبل نحوٍ من سبعة قرون !

فإن المؤرخ قـد يتأثـر بما حواليـه وبمَن حـواليه ، فى حين تبقـى الوثيقـة المعاصرة أمينةً شاخصة . ولقـد لذَّ لى أن أهتم بهذا الجانب من الرحلة ، وأن أقف بنفسى على مروياتها باعتبارها ـ كما قلت ـ دليلاً لا يقبـل الطعـن ، ولا سيما أن بعض تلك النقوش لا يـزال شاخصًا للعيان . وهكذا فقـد قرأ «ابن بطوطة» على شاهد قبر الشيخ «أبى الحسن الشاذلى» اسمه ونَسَبه متصلاً إلى «الحسن بن على» و«فاطمة الزهراء» ، عليهما السلام .

كما لم يَنْسَ ـــ وهو فى مصر ـــ التنبيه على الحروف الهيروغليفيـة التى وَقَفَ عليها فى بربـا أخميم ، والتى قال عنها : إنها لم تكن ـ آنـذاك ـ مقروءة . . . على نحو ما قاله وهو ببلاد السِّـنْد .

وقد كان فيما اكتشفه من خطوطٍ مـا قرأه على قَبْرية «فاطمة بنت الحسين

ابن على» : « هذا قبر أُمِّ سلمـة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنـه » . وقرأ فى لـوح آخر : « صنعـه محمد بن أبى سهل النقـاش بمصر »، وتحت ذلك ثلاثة أبيات .

وعندمـا زار «ابن بطوطـة» قبْر النبى «هود» عليـه السلام، شرقىَّ مـدينة تَرِيم فى حضرموت ، لاَحَظَ أن القبر مكتوب عليـه : « هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم » ، وهو ما يعتمده الحضارمة إلى اليوم .

وفى هذا الإطار ما قرأه على قبْـرية « سعـد بن عبادة » ، وما سجله وهو بمكة عن معالمها التاريخية ، مما يُـعَـدُّ فيه «ابن بطوطة» حجة ، لا سيّما بعد اختفاء تلك الآثار ، هذا إلى ما عَلِق بذاكـرة الرَّحالة مما قرأه فى دمشق ، وفى عسقلان ، ومدينة البصرة ، وبغداد ، وسوريا .

ومـن المُهمّ أن نسمـع «ابـن بطوطـة» ـ وهـو الحريص علـى توثيق تلك المنقوشات ـ نسمعه يتحسر لضياع مذكّراته على نحو ما وقع بالنسبة لمقيّدات «الهروى» أثناء احتلال الروم للأراضى المقدسة .

ويخبرنـا بأنـه كُتب على قبر «البخـارى» : « هـذا قبر محمـد بن إسماعيل البخـارى، وقد صنف من الكتب كـذا وكذا . . . » . وكـذلك كُتبت على قبـور علماء بخارى أسماؤهـم وأسماء تصـانيفهم : « وكنتُ قيـدتُ من ذلك كثيرًا ـ يقول «ابـن بطوطة» ـ وضاع منـى فى جُملة ما ضاع لـمَّـا سلبنى كفار الهنـد فى البحر . . . » . وقـد اهتم ـ وهـو فى بلاد السنـد والهند ـ بتقصى المنقوشـات باعتبـارها الـرائد الذى لا يكـذب أهله ، فأخبرنـا بأنـه قرأ على مقصورة الجامع فى (مُلتـان) التى أمر السلطان « غياث الـدّين تُغلق شاه » بعملها ، قرأ : «إنى قاتلت التتـر تسعًـا وعشـرين مرةً فهزمتُهم ، فحينئـذٍ

سُميتُ بـالملك الغـازى» . وقـد أخبرنا كـذلك بأنـه قـرأ على محراب الجامع الأعظم فى مدينة دهلى تاريخ افتتـاح المدينة من أيدى الكفار فى سنة (٥٨٤ هـ = ١١٨٨م) .

وقد أمكنه أن يسجل ما نقشـه « جلال الدّين أحسن شاه » على صفحتى الدينار : (سلالة طه ويس ، أبو الفقراء والمساكين ، جلال الدنيا والدّين ، الواثق بتأييد الرحمٰن ، أحسن شاه السلطان) .

ومما يجرى مجرى النقـوش ؛ نذكر بعض النصـوص التاريخيـة التى حرص على تسجيلها ، مما يُعَدُّ اليوم لدى المهتمين بها حججًا يعتمد عليها ، ونشير مثـلاً إلى النص التاريخى لجواب سلطـان الهنـد على رسـالة إمبراطـور الصين «هيُّونْتى Hyunti » الـذى طـالب بترميم معبـد بـوذى عتيـق بقـرب جبل الهيملايـا فى الموقع المعروف بسمْهل ، حيث نجد أن العـاهل الهندى يكتب إليه قائلاً : «إن هـذا المطلب لا يجوز فى ملة الإسلام إسعافـه ، ولا يباح بناء كنيسـة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية ، فإن رضيت بإعطـائها أبحنـا لك بناءه ، والسـلام على من اتبع الهدى » . إلى غير هذا من الـوثائق التى لم يغفلها ، بما فيها الكتـابات باللسان الهنـدى ، على نحو ما قرأنـاه له وهو فى مدينة تَارْنَا الأثرية من بلاد السند .

وقد تعلقتْ نفسى بمتـابعة هذه المعلـومات فى الـرحلات التى قمت بها عبر الأنحـاء التى زارهـا ، وقد ذهبتُ بعيـدًا إلى جـزر المالـديف فى المحيط الهندى لأعرف جليّـة الأمر حول ما نقلـه «ابن بطوطة» فى رحلته عَـمَّـا كان قرأه هنـاك على مقصورة الجامع ـ منقوشًـا فى الخشب ـ من أن سلطـان هذه الجزائر أسلم على يد «أبى البركات البربرى المغربى » .

فعـلاً طلبتُ أن أقف على اللـوحـة المذكـورة ، فـوجـدت أنها نُقلت من مكانها الأصلى وعُـوِّضَتْ بقطعـةٍ حديثةٍ حاولتْ أن تنقل ما كـان فى اللوحة الأصلية؛ لكنهـا حَـرَّفتْ كلمـة «أبى البركات» إلى «أبـى الرّكـاب» ! وكلمةَ «البربرى» إلى «التبريـزى» ! ومن حسن الحظ أن اللوحـة الأصلية يحتفظ بها المتحف الوطنى اليوم ، ويمكن أن نقرأ فيها هذه العبارات بوضوح : ووصل فى هذا البلـد أبو البركـات . . . البربرى وأسلـم السلطان على يـده فى شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة (يولية ١١٥٣م) .

والحديث عن عـلاقة المغـرب مع المالـديف بالأمس يسـوقنا إلى التـذكير بانعكاس تلك العلاقات على حاضرنا اليـوم ، حيث شاهدنا لقاءً فريدًا من نوعه تُسبّبه شهادة «ابنِ بطّوطة» .

خريطة العالم الإسلامى فى الرحلة

تتجاوز الرحلة محتواها كمجرد مذكّرات إلى أنها تُعَدُّ مصدرًا مُهِمًّا من مصادر التاريخ الدولى ، ليس للمملكة المغربية وحدها ، بل إنها مرجع أساسٌ للتاريخ الدولى للعالم الإسلامى ، وعلاقات هذا العالم بعضه ببعضٍ ، وعلاقاته مع العالم المسيحى ، بحيث إن رحلة «ابن بطوطة» تُعَدُّ من هذه الناحية تاريخًا لما أهمله التاريخ . وهكذا ، فمن خلال الرحلة استمعنا لـ «ابن بطوطة» وهو يستعرض أمامنا أقطاب الدول الكبرى التى كانت تهيمن فى عهده على معظم أطراف الدنيا ، وكان عددهم سبعة : سلطان المغرب ، وسلطان مصر والشام ، وسلطان العراقين ، وسلطان الترك ، وسلطان تركستان وما وراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين . ولقد وجدنا أن هناك بعضَ الثغرات المهملة مِنْ لَدُن بعض المؤرخين التقليديين فيما يتصل ببلاد المغرب يملؤها الرحالة «ابن بطوطة» ، مثل حديثه عن مصادفته لسفارةٍ من تونس فى قصور بنى عبد الواد ، وهى السفارة التى رافقها عند عودتها لتونس . . .

وفى (تونس) نقرأ حديثه عن ظهور العاهل الحفصى «أبى يحيى أبى بكر» فى عيد الفطر سنة ٧٢٥ هـ (سبتمبر ١٣٢٥م) ، وليس بعد هذا التاريخ كما يحكيه «ابن خلدون» !

ومن هنا كان من المتعـذر كتابة تاريخ هذه المغـارب دون العودة إلى رحلة «ابن بطـوطة» ، سـواء عندمـا كان ذاهبًـا للحج ، حيث كان هنـاك ثلاثـة مغارب ، أو عندما كان عائدًا ، حيـث كان هناك مغربٌ واحد ، تحت قيادةٍ واحدة .

وعندمـا يتحدث التـاريخ عن العـلاقات الأولى للمغرب مـع الأتراك ؛ لابد أنَّنا سنُفاجَــأُ بمعلومةٍ طريفـةٍ ، تتحدث عن استقبال الرحـالة المغربى من لدن الأميرة «بَيلون خاتون» زوجة السلطان «اختيار الدّين أُورخَان بك بن السلطان عثمان الأول» ، الـذى أصبحت تنتسب إليه الإمبراطوريـة العثمانية التى عرفها العالم فيما بعد .

وعلى صعيد علاقـات المغرب بالمشرق ؛ أذكر أيضًا الأصـداء التى تركتْها معركـة مرج الصفّار ، التى وقعت فى ثـانى رمضان سنـة ٧٠٢ هـ (١٢ من أبريل ١٣٠٣م) بين التتر وبين المماليك ، بين الملك الإيلخانى «قازان» وبين الملك «الناصر» . ومن خلال هذه الأحدَاث شـاهدنا علاقات دولة المماليك بالمغرب عندمـا بعثوا للعاهل المغربى بعددٍ من الهدايا الـرمزية من الأكداش التى كـان يستعملهـا التتر . . . ووجـدنـا أن المغـرب ، بـالمقـابل ، يبعث للمشرق بهدايا مماثلة : أجراس ضخمة انتزعها من كنائس الروم ، كردّ فعلٍ لإتلاف هؤلاء لعدد من المنابر الإسلامية .

هذا أيضًـا إلى العلاقات التى ربطت مصر بإفـريقيا السوداء ، وخـاصة بعد حجة إمبراطور مالى «مـوسى» ، ومَقْدم «سراج الدّين بن الكويك» على العاهل الإفريقى .

وإذا تحدث التاريخ عن التشريفات المتبعة فى القصـور؛ فلا بد أن يرجع

إلى الرحالـة المغربى وهو يؤدى وصفًـا دقيقًا لأمر المراسم بالهنـد عندما يتنقّل السلاطين، وعند استقبالهم للأعياد ، وتنظيمهم للاستقبالات والحفلات ، واستعمالهم للسـَّرير الأعظم ، والمبْخرة العظمى .

ومن خلال رحلة «ابن بطوطة» عرفنا عن ممالك أخرى كانت بالنسبة إلينا وراء الظل ، مَثَلاً عن أنطاليا (بلاد الأناضول) وما احتوت عليه من إمارات توزعت الحكمَ هنا وهناك : إمارات وممالـك فى الأناضول كان «ابن بطوطة» يخترق حدودها بدون تأشيرة . ومن خلال الرحلة عرفنا عن الدولة الأرْتُقِيَّة فى ماردين شمال العراق وجنوب تركيا ، وقـد استمرت طوال ثلاثة قرون . ولقد عـرفنا ، عن طـريق الرحلـة ، عن علاقـة جمهوريـة جنوة بـآسيا الصغـرى بجنوبى الروسيا ، وعلاقات هذه المنطقة بمماليك مصر .

ومن خلال الرحلة سمعنا عن بطل من أبطال التاريخ الإسلامى : « عمر بك »، الـذى استمات فى الدفـاع عـن وطنـه ، وحـاول جـاهـدًا أن يفتـح القسطنطينية قبل الموعد الذى نعرفـه لِفَتْحِهَا ، حيث التجأت الروم إلى البابا الذى عهد إلى جِنْوَة وفرنسا بمساعدة القسطنطينية .

كثيرة هى المعلومـات التى قدمهـا إلينا هـذا الـرَّحَّـالة مما لم يكن معـروفًا حتى لدى أبنـاء البلاد المعنية بالأمـر. لقد حمل تلك المعلومات معـه إلى بلاد المغرب بعيدًا عن الرّقابة ، حيث تُقـدم اليوم لأصحابها حتى يضيفوها إلى ما عندهم .

وقد أصبح اليوم حديثه عن الحدود بين حكومةٍ وأخرى ، وعن الإجراءات التى كان يقوم بها لـدى الجهات المعنية حتى يؤذن له بـالزيارة ، أصبح ذلك حجةً تتردد أصداؤهـا اليوم فى المحافل الدولية على أنها تعنى حقـائق تاريخية

ينبغى الاستئناس بها ، إن لم يكن التمسك بها فى التعاليق عند الاقتضاء .

وقد كشف «ابن بطوطة» عن دوْر الزواج السياسى فى إحكام العلاقات بين أمة وأخرى . ولقد عاش هو هذا التاريخ ، فرأى كيف أن سلطان (قِفْجَق) يتزوَّج بإحدى بنات إمبراطور القسطنطينية ، ورأى أنَّ ملِك مصر يتزوج ابنة سلطان خوارزم . . . إلى آخر النظائر التى ذكرها .

و«ابن بطوطة» هو الذى لفت نظرنا إلى مناهضة العنصرية من لَدُن بعض الحكام الهنود المستنيرين ، من الذين حَرَّمُوا فى إقليمهم استعمال كلمة (الأجنبى) ، أو حتى كلمة (الغريب) ، وهم يستعملون عِوَضَ هذين النعتين كلمة (العزيز) ـ مفردة (الأعزة) ـ لكل طارئٍ قصدهم . ولهم (أى لهؤلاء الأعزة) مكانهم المتميّز فى الحفلات الرسمية ، وقد كان من اللقطات الهامة فى تاريخ العلاقات الدولية ، وخاصة فيما يتصل بشيراز والتتر ، تلك التى استأثر بذكرها الرحالة المغربى عندما تحدث عن وصول سفير عن سلطان العراق «أبى سعيد بَهادور» إلى هذه المدينة ، وكان السفير بالمصادفة هو الأمير «ناصر الدّين الدَّرقَنْدى »، وكان خراسانى الأصل ، وقد قدم فى حاشيةٍ تتألف من نحو خمسمائة فارس من خُدَّامه وأصحابه ، هذا إلى السفير «رجب البُرقَعى» ، وأصله من القِرَم ، راح سفيرًا من الهند إلى «الخليفة» فى مصر ، حيث استُقبل بمحضر الملك «الصالح إسماعيل» .

وعن طريق «ابن بطوطة» علمنا عن وجود سفارة مصرية برئاسة «صدر الدين سليمان المالكى » الذى وجّهه الملك « الناصر» إلى سلطان العراق فى إطار العلاقات بين المماليك وبين الإيلخان .

هذا إلى سفاراتٍ أخرى قرأنا عنها فى الرحلة ، كان من أبرزها الحركة

الدبلـوماسيـة الواسعة النطـاق التى شَـهِدَتْـهَـا بلاد فـارس عندمـا قام «محمد خُدا بنده » بتوجيه بعثات إلى مختلف الجهات لحملها على الموافقة على جعل المذهب الشيعى هو المذهب الأساسى للـدولة ، هذا إلى سفارة الشيخ « زاده الخراسانى » السفير عن ملك هراة إلى الملك «أبى إسحاق» فى شيراز .

ولقد كان عدد السفراء الذين تبادلتهم دَوْلَتَا المغول والمماليك كثيرًا ، وكان لـ «ابن بطوطـة» فضل الإشارة إليهم ، كما كان له فضل الإشـارة للعلاقات بين الدولـة الرسولية فى اليمن وبين المماليك فى مصر من خـلال دور المدرسة المظفرية بمكة المكرمة .

وعن طـريق «ابن بطـوطة» قـرأنا عـن وفادةٍ من الخان الأعظم إمبراطـور الصين إلى سرنديب للحصـول على قطعةٍ من الصخرة التى رسم عليهـا قدم آدم ! . . . ونذكر ـ بالمناسبـة ـ أن حكومة سرنديب أطلقت على أحد الموانئ فى «سريلانكا» اسم «ابن بطوطة» .

وعن طريقه عرفنا عن صلـة ملك الصين ببلاد طَوَالِسى . . هذه المملكة الـواسعة التـى يمكن أن تندرج تحتهـا أمم عظيمـة تعـرف اليوم بـالفلبين ، واليابان ، وما جاورهما ! على نحو ما تندرج تحت اسم (مُلْ جاوة) شعوبٌ وأمم تعرف اليوم تحت اسم : تايلاند ، وميـانْمار ، وفيتنام ، وماليزيا ، وما جاورها .

وإن معلـومـات «ابـن بطـوطـة» عن سلطنـة مُـــتْــرَة (MADURA) وعلاقاتها بالإمارات الأخرى تظل معلوماتٍ دقيقةً ، أيدتها النقود المكتشفة ، هذا إلى حديثه عن معارضة أهل سُدْكَاوَان للهند !

وعن طريق «ابن بطوطة» عرفنا عن أخبار الجماعات اليهودية التى كانت

منتشرةً هنـا وهناك . وهكـذا ، فكما كانت الـرحلة مصـدرًا مهمًّـا للعقيـدة الإسلامية، كانت أيضًـا مرجعًا لأهل الديانات الأخـرى التى كانت تتعايش فيما بينهـا طوال التـاريخ . وعن طريقـه تعرفنـا على عدد من قـواعد العـالم الإسلامى على ذلك العهد ، من أمثال دولة لورستان الكبرى ، وإمبراطورية القفجق ، وسلطانها «محمد أوزبك خان » .

وقد قَدَّمَ إلينـا «ابن بطوطة» فى ثنايـا الرحلة معلومـاتٍ تنفعنا على صعيد التعامل الـدولى ، فقـد ذَكَّرَنـا بتطبيق الحكومـة ـ فى قالقـوط ـ للقاعـدة الفقهيـة التى تقضى بإرجـاع إرث الأجـانب الهلكى إلى أهلهم وورثتهم أينما كانوا. أقول : إنَّ تطبيق ذلك هو الـذى كان يساعد المستثمرين على اختيار قالقوط مركزًا تجاريًّـا لهم !

كما أفدنـا فائدةً تاريخية لم نقـرأ عنها فى التآليف التاريخيـة الأخرى ، مثل (جـامع التواريخ) لـ «رشيد الـدّين» ، عن مأساة اجتيـاح بغداد من لَـدُن المغـول . . . لقد قـال إن عـدد الذين قضـوا فى تلك الفتنـة من العلماء فقط أربعة وعشرون ألف عالم !

وكلُّنا يعـرف من عشيرة آل مُهَنّا العـربية بـديار الشـام وما قامـت به من أدوار، وما كان لها من صـدى ، سواء على صعيد العلاقات العربيـة العربية أو العلاقات العربية البيزنطية ، «مُهَنّا الأول» المتوفى حوالى سنة (٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م)، و«مُهَـنَّا بن عيسى» (الثـانى) المتـوفى سنـة (٧٣٥ هـ = ١٣٣٥ م)، والملقب بسلطـان العرب ، هـذا الـذى أرسل ابنه «مـوسى» إلى ملك التتر فى العـراق مع «قـراسنقـر» وجماعته قبل أن يلتحـق هو بـالمنطقـة التترية . تواريخ مثيرة لهذه العشيرة التى كانت معلـومات «ابن بطوطة» عنها محلَّ تزكيـةٍ من لَدُن الـذين كتبوا عن عشـائر الشام وصحّحـوا ما قـاله «ابن

بطوطة» عن آل «حيار بن مهنّا بن عيسى» ، قبل أن تنكسر شوكتهم بموت «محمد بن حيار» .

وقد قدم لنا «ابن بطوطة» معلوماتٍ جدَّ قيِّمة عن أشراف الحجاز على عهده، بمن فيهم الحسَنيون أصحاب مكة ، وبما عرف عنهم من احتكاكات بدولة المماليك . وهكذا قرأنا عن «رُميثة بن أبى نُمى بن أبى سعد بن على بن قتادة» .

كما عرفنا عن الحُسينيين أصحاب المدينة بما عرف عنهم من تنافس ساخن، وهكذا سمعنا عن «كُبَيْش بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم» .

ومن الطريف أن نعرف عن شريف حُسينى ، حفيدٍ لـ «جمّاز» يحمل اسم «قاسم»، يلتحق بغرناطة ، ويشارك فى معركة، ويستشهد على مقربة من الجزيرة الخضراء .

و«ابن بطوطة» هو الذى ساعدنا على معرفة الظروف التى جعلته يتوجس خيفةً من حركة القراصنة وهو فى طريقه إلى المغرب عبْر جزيرة سردانية ، فقد كانت الاتفاقية المغربية مع ممالك جنوب أوروبا أتت على نهايتها ، فلا غرو إذن أن يحتاط الرَّحالة لنفسه .

هذا ، وقد أجمعت المصادر الإيطالية - وهى تتحدث عن «جِنْوَة » - أجمعت على النقل عن «ابن بطوطة» عندما تحدث عن افتداء السلطان «أبى عنان» لمدينة طرابلس بتلك المبالغ السخية من العملة الذهبية حتى لا تبقى طرابلس بيد الجنْويين ! لقد تحدث «ابن فضل الله العُمَرى» فى السِّفر السابع والعشرين عن احتلالها من لدن جنوة ، ولكنه ترك المدينة

أسيرة . ولم يكن هناك غير «ابن بطـوطة» الذى تحدث عن تحريرهـا من لَدُن السلطان «أبى عنـان»، وهى المبادرة التى سجلتها الرحلـة ، وأكدتها تهانى غرناطة لفاس . ثم أتت المصادر الإيطالية وغيرها لتعتمد تلك المعلومات .

وقد أفـادنا «ابن بطـوطة» عن اهتمام المشرق بأخبـار المغرب ، وأنـه ـ أى المشرق ـ ما انفك يتتبع الأخبار الواردة عليـه من بلاد المغرب ، وخاصة منها ما يتصل بحركات الجهاد فى الأندلس ، ومن هنا علم «ابن بطوطة» لما وصل إلى بغداد، فى شوال من عام ثمانيـة وأربعين ، علم من بعض المغاربة الذين كانوا هناك بأخبار كارثة وقعة طريفٍ ، واستيلاء الروم على الجزيرة الخضراء، على نحو ما كان وصلنا بالمغـرب عن سقوط بغداد كما يذكره «ابن عبد الملك المراكشى» .

وقد عـاش «ابن بطوطة» مرحلـةً دقيقةً جدًّا من تـاريخ المغرب الكبير ، أدّى عنها بعبـاراته مـا سمحت به ظروفـه ، وبحكمةٍ ودبلومـاسيةٍ فـائقة ، عندما تحدث عن مروره بتونس فسلّم على السلطان «أبى الحسن» ، واجتمع بمجلس علمـه ورجال مشورتـه ، ثم لم يلبث أن أصبح ببلاط «أبـى عنان» المنـاهض لـوالـده ، ومع كل ذلك فإنـه لم يسمح لنفسـه أن يتـدخل فيما لا يعنيه، ويتحدث بما لا يُـرضِى عما يجرى بين الوالد وولده ، بـالرغم من أنّه صحب فى مدينة « مراكش » رَكْبَ «أبى عنـان» الذى عَادَ بها يحمل شِلْوَ [1] أبيه إلى مقبرة «شالة» بالرباط .

و«ابن بطـوطـة» هو الـذى أحـاطنا علمًـا بما كـان يضمـه بلاط عهـد

---

(١) الشِّـلْو : العضو ، وجمعهـا : أَشْلاء ، وهى من الإنسان وغيره : أعضـاؤُه بَعْدَ التفـرُّق والبلى ، والمراد به هنا الرفات .

السلطان «أبى عنان» من وفودٍ ترد من خارج المغرب ، مثل ابن أمير الموصل وديار بكر «الشريف علاء الدين» ، الذى كان ـ فى أثناء تحرير رحلة «ابن بطوطة» ـ بعاصمة فاس : « مستقر الغرباء ، ومأوى الخائفين » على حد تعبير الرحلة .

و«ابن بطوطة» ، ولو أنه لم يصرح بذلك ـ حفظًا للأسرار على ما جرت عليه الأعراف بين الدول ـ هو الذى وجهه السلطان «أبو عنان» ، على ما يبدو، فى مهمةٍ إلى غرناطة ، فى ظروف كانت فيه العلاقات بين «أبى عنان» وبين والده على ما لا يرضى . وبهذا نفسر المرض الدبلوماسى لملك غرناطة ، وبهذه المناسبة عرفنا « رندة » التى كانت عاصمةً للقسم الأندلسى التابع لدولة بنى مرين . و«ابن بطوطة» هو الذى راح مبعوثًا أيضًا فى مهمةٍ للسلطان «أبى عنان» إلى بلاد السودان على ما يظهر ، حيث تم اتصاله المباشر بعدد من أقطاب وأمراء المنطقة ، وحيث قضى وقتًا هناك قبل أن يصل إليه بريد خاص من العاهل المغربى يطلب إليه أن يعود فورًا إلى حاضرة فاس .

ولا ننسى أن «ابن بطوطة» هو الذى ذكّرنا ـ وهو يعيش فى مالديف ـ بأنه ترك فى المغرب عددًا من الأسرى الروم . وكان الوقت يصادف فعلاً سلسلةً من الاحتكاكات التى تجرى بين المغرب وقشتالة ، وقد أعطانا الرحالة المغربى وصفًا للطريقة التى كانت الحكومة المغربية تستعملها لضبط الأَسْرى ومنعهم من الفرار إلى أن يتم افتداؤهم بمن يوجد من المغاربة فى قبضة الطَّرَف الآخر .

وقد حدث أن بعض الدول التى كان «ابن بطوطة» يتحدث عنها اختفت من مسرح السياسة ، وأتى بعدها قوم آخرون ، فأحرقوا كتب الأولين ودمروا

آثــارهم ، فلم يُعـرف عنهم شيء إلاّ ما قـرأنــاه من خـلال معلومـات «ابن بطوطة» التى « فلتت » للخارج ، فاحتفظت بحياتها وبجدّتها ، وبالخريطة السياسية للعالم الإسلامى .

نعم ، كثيرةٌ هى اللقطـات التى تفيـد المهتمّين بـالتاريخ الـدولى للعـالم الإسلامى ، وهى إنْ دَلَّتْ على شىء فإنها تـدل على أن الـرَّحَّـالة لم يكن مجرد سـائحٍ يمشى فى منـاكب الأرض ، ولكنـه كـان يهدف إلى تعـريف فـريقٍ بفريق . . . وكأننى به يكتب تقـريرًا لملوك المغرب عَـمَّـا رآه ومـا شاهده عبر أطراف الدنيا ليأخذوا منه ما يرونه صالحًا لمسيرتهم إذا كانوا يريدون .

ومن حُسن حظنا أن «ابن بطوطة» كان يعمل بنصيحة القاضى «أبى بكر ابن العـربى» ، سفير المغـرب لـدى العـراق ، الذى قـال فى تأليفـه (كتـاب الرحلـة) عندمـا دخل إلى بغداد وتعـرّف على الخليفة بها : « نَعِمَتِ المعـرفةُ التعـرُّف بالسلطان ، والتشرف به عنـد التغـرُّب من الأوطان ، ونِعْـمَ العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان . . . » .

فبفضل العمل بتلك النصيحـة أمكننـــا التعـرف على الكثير من القـادة المتنفذين آنَ ذاك .

موقع الرحلة فى أدب الرحلات

يلاحظ فى المؤلفات العربية على العمـوم ـ وخاصةً منها ما يتصـل بالأدب العربى ـ غياب الحديث عن الذين يكتبون تلك التآليف : عن شخصيتهم ، وعن أفكارهم وأحاسيسهم . . بحيث إنك تقرأ الكتاب من أَلِفِهِ إلى يائه دون أن تجد أثـرًا يعـرّفك بمحرّر الكتـاب ، أو بعصر تأليفـه ، أو حتى بظـروف تأليفه وما يجرى من حواليه .

وقد استُثنى من كل هذه المؤلفـات جميعًا كتَابُ « الرحلـة » ، أية رحلة ، الـذى يمتاز كما هـو معلوم بمعـرفة المزيـد من المعلـومات عن المؤلف وهـو يتحـدث عن مراحل تنقـلاتـه وعن مشاعـره ، مِـمَّـا يـرتضيـه ومِـمَّـا لا يـرتضيه ، هـذا إلى تعـرفنا على الجهـات التى يمـرّ بها جغرافـيًّـا وبشريًّـا وفكريًّـا ، فنشعر بنوع من التجديـد فى الفائدة ، بنوعٍ من تمكن الكاتب من التعبير عمّـا يـريد أن يـؤديه بأسلوبـه الذى يتغلب بـه على كلّ الصّعاب ، والذى يجعله مهيمنًـا على إبلاغ الناس ما يريد إبـلاغه من وصفٍ للطبيعة ، وتقديمٍ للظواهر التى تحف بمحيطه ، والبيئة التى يعيشها .

وهكذا فإن الكتّاب الـذين حرروا مذكراتهم التى نطلـق عليها اليوم اسم (الرحلات) ؛ يمثلون فى واقع الأمر جانبًا إبداعيًّـا فى أدبنا العربى ، ومن هنا

نحسّ تلقائيًّا بميل نفوسنا إلى هذا النّوع من الكتابة المحببة ، لأن ذلك يعبر عما يروج فى فكر الكاتب بدون تصنّع أو انفعال ، ولأنه يجعلنا نرافقه فى رحلته ، ونشعر بمثل الشعور الذى كان يعيشه ، سواء كان ذلك الكاتب فقيهًا أو شاعرًا أو مؤرخًا أو عالِمَ اجتماع .

لقد عُرف المغاربة من قديم بأنهم مُتفقون فى أدب الرحلة ومُوَفَّقُون كذلك ، يدل على هذا ما تركوه من بصماتٍ لهم فى مختلف كتب التراث العربى .

وترجع أسباب اهتمام المغاربة بالرحلة والكتابة عن تحركاتهم ـ وخاصة فى العهد الإسلامى ـ إلى الحج فى المقام الأول ، وذلك لأن الإسلام يجعل من الحج ركنًا بارزًا من أركانه ، فالمسلم ـ وهو يفكر فى الثوابت التى تجعل منه مسلمًا مثاليًّا ـ تنتصب أمام مخيلته الكعبة المشرفة ، سواء أكان فى شرقها أو غربها ، خمس مرات فى اليوم على الأقل ، يتجه إليها فى صلاتِه وفى توسلاته . . .

وهكذا يكون العامل الأول هو تحقيق الأمل فى زيارة تلك البقاع التى تشدّنا إليها شدًّا . . ومن هنا ندرك السرّ فى توجه المغربى نحو الشرق ، نحو مهد الحضارة ومهبط الوحى ، ومن ثَمَّ كان بعض من يقصد البلاد الحجازية من الفقهاء والعلماء والأدباء لأداء الحج يشعر بأن عليه دَيْنًا يجب أن يؤديه لإخوته من الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالالتحاق بتلك الديار، والذين كانوا يقتنعون بوصف تلك المعالم وما تحتضنه من عوالم .

وهذا الدَّيْن يتجلّى فى تحرير التعريف بتلك البقاع ، وبمَنْ تضمُّهم تلك البقاع من رجال ، أحياء وأموات ، طبعًا مع وصف المراحل التى مرَّ بها

الحاج من مدينتـه التى انتقل منها إلى حيث يجتمع بإخوته من سـائر جهات العالم الإسلامى ، مُـحْـرِمًا مُلَـبِّيًا ، إلى أن يقف على جبل عرفات ، وذلك «التعريف» هو الذى نسميه بالرحلة ، التى يتحدث فيها الرّحالة عن محطاته الـمُتَّبَعَة ، سواء كانت بـرًّا أو كانت بحـرًا ، مُضيفًا إلى هذا حديثه ـ كما قلنا ـ عما يعترضه فى طريقه من مشاهدات ، ومُعَرِّفًا بالآثار التى خلَّفها الأسلاف ، ومعطيًا نبذة عن المواقـع الجغرافية التى يسلكها بما تحتوى عليـه من نعوت وأوصاف . وهكـذا ازدهرت ، نتيجـةً لهذا ، حركـة انتساخ المخطـوطات ، وخاصةً منها كتبَ الرحلة لَـدَى الحجاج يستصحبونها معهم للاستئناس بها ، وللقيام أحيانًا بالمقارنات والمفارقات .

ويلاحظ أن تاريخ المغرب ـ وخاصةً فى القرن الخامس والسادس والسابع والثامن ـ عـرف نوعًا من تطور مثل هذه الرحـلات الحجازية بفضل تشجيع الناس بمن فيهم القادة والحُكَّام لتوفير هـذا النوع من المعرفة للمواطنين . ولم يقلّل من شأن الـرحلـة الحجازيـة إلاَّ ما ظهـر من ميل لتفضيل الجهـاد على الحج فى أعقاب استيـلاء الروم على البحـر ، وعدوانهم على ديـار الإسلام ، والعـدوان المتـوالى علـى المسلمين فى الأندلـس ، وذلك اعتمادًا علـى فتوى لـ «ابن رشـد» ردّد صداها «النَّـاصرى» فى كتابـه (الاستقصا)، وهى تعطى الأسبقيةَ للجهاد على الحج .

وهكذا تكوّنت لـدينا لائحةٌ لهؤلاء الأعلام الذين قصدوا الـديار المقدسة لأداء مناسك الحج ، فيهم الكثير ممن لم تصلنا آثـارهم إلى اليوم ، لكن فيهم طائفةً مِـمَّـن اشتهر ذكرهم بما خلّفوه من أعمال جليلة خلدت أسماءهم .

ونذكر من هـؤلاء الرحالة «أبا الحسـن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى»

(٥٧٨هـ)، الذى سار بالرحلة خطواتٍ واسعة ، كما نذكر «ابن رُشَيد الفهرى السبتى» (٦٨٣ هـ) ، صاحب كتاب (ملْء العيْبَة) ، و«العبدرى الحيحى» (٦٨٨ هـ) ، صاحب الرحلة المغربية . كما نذكر رحلة «أبى القاسم التجيبى» (٦٩٥ هـ)، صاحب (مستفاد الرحلة والاغتراب) ، و«ابن بطوطة» (٧٢٥هـ) موضوع الحديث ، و«خالد بن عيسى البلوى» (٧٣٦ هـ) صاحب (تاج المفرق) ، و«ابن الحاج النُّميرى» (٧٧٤هـ) صاحب (فيض العُباب) الذى سجلت له رحلة أيضًا إلى الحجاز فى مجلدة ، و«محمد بن سعيد الرعينى» (٧٧٨ هـ) صاحب الرحلة الحجازية المنظومة .

وعلاوةً على السبب المتلخص فى أداء فريضة الحج ، هناك الرحلة الدراسية : أى الرحلة من أجل طلب العلم ولقاء المشايخ الكبار ، حيث نجد أن المكتبة العربية تزخر كذلك بمن ألَّفوا عمن أخذوا عنهم فى رحلتهم الدراسية من الشيوخ ، وعما حصلوا عليه من إجازات تأذن لهم فى تلقين ما حصلوا عليه للآخرين .

ونذكر إلى جانب هذا الرحلات العِلمية، وهى غير الرحلات الدراسية . ويمكن أن نصنّف فى هذا الباب بعض الرحلات التى كانت تقصد إلى حمل كتاب علمى من جهة إلى جهة بقصد تعميم الفائدة منه ، وأذكر هنا على سبيل المثال الرحلة التى قام بها «هشام بن هذيل» مُكَلَّفًا من قِبَل الخليفة الأندلسى «عبد الرحمن الناصر» ، من أجل طلب المساعدة على ترجمة مخطوطة «ديوسقوريدس» المكتوبة باللغة اليونانية ، والتى كان الإمبراطور البيزنطى أهداها إلى الخليفة «الناصر» فى عام (٣٣٧ هـ) فى حفلٍ مشهودٍ

تحدثت عنه المصـادر التاريخية والمؤلفـات الطبية . وقد استجـاب الإمبراطور البيزنطى لرسالة الخليفة «الناصر» ، فبعث إليه بالراهب «نيقولا» الذى وصل إلى قرطبة فى عام أربعين وثلاثمائة .

ومن أسباب الرحلة كذلك : المهمّات السياسية التى يروح فيها عِلْية القوم من علماء وأدباء ، بما كان قد يصحبُهم من مرافقين ومساعدين .

وقـد حفظ التاريخ لنـا أسماء عددٍ من السُّفـراء الـذين كانـوا يُـدَوِّنُــونَ رحلاتهم فى كـراريس يرفعونها فى أغلـب الأحيان إلى الملوك ، ونتيجـةً لذلك زخرت المكتبـة المغربيـة أكثر من غيرهـا بعدد من الـرحلات السِّفـارية التى أَثْـرَتِ الأدب المغـربى ، علاوةً على مـا قدمته من معلـومات جـدّ قيمة عن البلاد التى زارهـا أولئك السفراء ، وعن الأحوال الدوليـة على ذلك العهد ، وعن التطورات التى تمـرّ بها الأمم .

وهكذا ظلت أخبار سفارة «يحيى بن حَكَم الغَـزَال» (ت ٢٥٠ هـ) التى راحت إلى بيزنطة ردًّا على سفارة «ثيوفيلوس Theophilus » إلى الأندلس فى أعقاب فتح عمّورية ، وقد لخص أخبارها «ابن دحية السبتى» (ت٦٣٣هـ) فى كتابـه (المطرب من أشعـار المغرب) . . . أقول : ظلت حديـث المجالس الأدبية والسياسية بما تضمنته من طـريف نكتةٍ وجميل ظـرْف ، وبخاصة فيما يتعلق بحديث السفير الأندلسى إلى «ثيودُورَا» زوجة إمبراطور القسطنطينية .

وتُعَدُّ رحلـة «يحيى الغَـزَال» أقدم من الـرحلات التى قـام بها أيام الـدولة العباسية «أحمد بن فضلان» إلى بلاد الخَـزَر والروس ، و«أبو دُلف» إلى إيران والهند والصين فى النصف الأول من القرن الرابع ، و«ناصر خسرو علوى» إلى الدّيار الحجازية بين عامىْ (٤٣٧ و ٤٤٤) .

وبين أيدينا خرومٌ من رحلة القاضى «أبى بكر بن العربى الإشبيلى» بصحبة أبيه «عبد الله» فى عام (٤٨٩ هـ = ١٠٩٧ م) إلى مدينة السلام ، وقد بقيت هذه الرحلة حديث المجالس كذلك بما تضمنته من « مكتوب الخليفة المنقول فى أيدى الناس » على حدّ تعبير « ابن خلدون» .

وإلى جانب الرحلات الحجازية والدراسية والعلمية والسّفارية ، نعيش مع نوعٍ آخر من أنواع الرحلة ، وهى تلك الرحلات السياحية ، التى تكون غايةُ واضِعها فى سفره مجرد السياحة ، والوقوف على الآفاق ، وعجائب المخلوقات ، والتعرف على أخلاق الشعوب وعوائدها . . وهذا النوع أيضًا مما تزخر به المكتبة المغربية . ونذكر فى صدر ما وصلنا من هذا الصِّنف ـ فى النّصف الثانى من القرن السادس الهجرى ـ كتاب (تحفة الألباب) من تأليف «أبى حامد الأندلسى الغرناطى» ، الذى يقول فى مقدمتها : « ومنذ اغتربتُ عن المغرب الأقصى عام ٥٥٧ ؛ شاهدت من الأئمَّة الكرام ما لا يُعدّ ولا يُحْصَى ، وأولانى الله عز وجلّ على أيديهم من أنواع النعم ما لا يقدر على إحصائها إنسان » .

و«أبو حامد» هذا هو الذى أشاد بمعاملة أهل الصين للتجار المسلمين ، وتمنى أن يقتدى ملوك المسلمين بمثل هذا السلوك . . . !! والطريفُ أن «أبا حامد» وصل بهذا إلى فَهْم ذكى للحديث النبوى الذى يقول : « الدُّنيا سِجْنُ المؤمن » ، فلقد أدرك أنَّ معنى ذلك أن دنيا المسلم خالية فى بعض الأحيان من العدل والإحسان .

وهناك نوع من الرّحلات يمكن أن يطلق عليه اسم الرحلات الاستكشافية ، وهى غير الرحلة التى تكون أصلاً لغرض السياحة ، وهى التى يقوم بها أصحابها من أجل اكتشاف بلادٍ جديدةٍ والاطلاع على أحوالها .

ويمكن أن ندرج فى هـذا النوع من الـرّحلات مـا قام به أحـد عمالقة الأدب الجغرافى فى تاريخ الإسلام ، ويتعلق الأمر بـ «الشريف الإدريسى السبتى» ، الذى قَـدَّمَ إلينا (نـزهة المشتـاق فى اختراق الآفاق) . . هـذا الكتاب الـذى يُعتبر مَـعْـلَمـة من المعالم التى يعتزّ بها العالم الإسلامى على الصعيد الدولى ، فهو ــ أى «الإدريسى» ـ ولو أنه لا يتعـرض كثيرًا للوقائع التى حـدثت له فى أثناء أسفاره ، ولا يتعرض غالبًا لشىء من أحواله الشخصيّة ، لكنَّ تأليفه ذو صلـة قـويـــة بمـوضـوع الـرحـلات ، بـاعتبـــاره يخطط المراحل للجـوّالين والمسافرين ، وباعتباره مصدرًا اعتمد على الرحلات السابقة لغيره .

ونذكـر إلى جانـب هذا ، الرحـلاتِ الزِّيَـارِيَّة ، أى التى يقـوم بها بعضٌ بقصد زيارة أضرحة الأنبياء والصحـابة والأولياء ورجال الصَّلاح . ولا شك أن هذا النوع من الـرحلات يُـعَـدُّ من أهم المصادر عن تاريخ الحيـاة الدينية والحركـة الصوفيـة . وهـذا يفيدُنـا فى نفس الـوقت من حيث الفنّ المعمارى الخاصّ ببناء المساجد والمزارات والمشاهد .

ومن منّـا ينكر فـائدة كتاب (الإشـارات إلى معـرفة الـزيارات) لــ «أبى الحسن على بن أبى بكر الهروى» ، وهو كتاب لا تستغنى عنه مكتبة ؟! . .

وقد أثـار انتباهنا ونحن نقرأ عـن تاريخ انتشار الإسلام فى بـلاد آسيا وفى تخوم إفـريقيا ؛ الحديثُ عن نـوعٍ من الرحلـة كان لـه الأثر الأكبر فى دخـول الإسـلام فى تلك المنـــاطق النـائيـة ، لا عن طـريق السيـف ولا عن طـريق الإكـراه ، ولكن عن طـريق إعطـاء الــمَثَل الحسن ونشر الفضيلـة وتقـديم القدوة الطيبـة . وكان الذين قـاموا بمثل هذا العمل المتئـد الرصين والحكيم هم الذين كانوا يقومون بالـرحلات التجارية إلى تلك الأصقاع ، وكلّ الذين أشادوا فى الماضى والحاضر بظهور الإسلام هناك كانوا يقفون مشدوهين أمام

الأثر الحميد الذى خلفته الرحلة التجارية فى نفوس أولئك الذين أقبلوا على الإسلام بكل ما يملكونه من حب .

وقد ذهب بعض المهتمين بأمر الرحلة إلى أبعد من هذا فى استيعاب أنواع الرحلة ، فتحدثوا عن الرحلة البرّية والبحرية ، والخارجية والداخلية ، والاختيارية والقَسْرية ، والفردية والجماعية ، والرحلة الخيالية والرحلة التى تتخذ شكل المراسلات ، أو تهدف إلى إبرام المعاهدات .

لكننا سنقف هنا لنترك الفرصة للحديث عن نوعٍ أكثر شمولاً وأوفر فضاءً من كل تلك الأنواع التى تقدمت للرحلة . . . ذاك ما نعطيه اسم «الرحلة العامة» . . . ونقصد بها الرحلات التى جمعت الكثير من كل تلك الأغراض ، ونذكر على الخصوص رحلة «ابن بطوطة» ، فقد غادر بلدته طنجة فى بداية الأمر فى عام ٧٢٥ هـ بقصد الحج ، لكن بسبب تعذر الحج فى تلك السنة ـ لما صادفه من اضطرابات بين البُجاة والمماليك على ساحل البحر الأحمر ـ اضطر للانتظار سنةً كاملة لحضور موسم الحج فى عام ٧٢٦هـ . وهنا فى أثناء هذا الفراغ؛ نمت فيه الرغبة للقيام بحضور مجالس الدراسة ، وفى التزوج مرةً أخرى ! وفى القيام كذلك بزيارات سياحية على جانب كبير من الأهمية ، وفى القيام برحلاتٍ داخل الرحلة . ولم يلبث أن عبر الدنيا ، وارتاد الأماكن البعيدة .

وبعد أن قمنا بجولةٍ سريعة فى المحطات التى مرَّ بها؛ وَجَدْنَا أن «ابن بطوطة» كانت تتمثل فيه وتنطبق عليه صفات كلِّ أولئك الرحالة ، فهو حاج ، وهو دارس ، وهو سفير ، وهو سائح ، وهو مكتشف ، وهو زائر ، وهو داعية ، وهو تاجر أيضًا . . . وهو مُبَشِّر بالمعنى الحقيقى للمبشر .

* * *

الفهـــــرس

عـــربيـــة للطباعة والنشر
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043

(مشاهير الكتاب العرب)

(للناشئة و للشباب)



لا يعنى احتفاء الدار المصرية اللبنانية بالعظماء من كتاب الأمة العربية مجرد استرجاع الحديث عنهم، فذلك دور رواة السير الشعبية، ليتلهى بها البسطاء فى ساعات الفراغ، بل اننا نتوخى فى هذه السير مشوار العظمة نفسه، وكيف كان.. بمعنى أننا نقدم هذه الشعلة المقدسة فى يقين صاحبها، ونتتبع الجهود المضنية التى بذلها، ونكرس بذلك أمام الأجيال قيمة العمل الانسانى الجاد، وكيف تكون نتيجته، فأحيانا لا يرى الناس الأ... دون الوقوف عند الأسباب التى صنعتها. وإننا نتوخى أيضا فى سيرة الكاتب إما... بكاملها من تاريخنا الثقافى، بتفاعلاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية.. لتأمل... والتحليل المبسط، والأسلوب السهل الممتنع، وتلك غاية أخرى تمكن الأجيال الج... على مسار حركة الفكر وتطوره فى أمتنا العربية وخاصة أننا أشد ما نكون فى حاج... فى خضم التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية التى يتحتم علينا مواجهتها

الدار المصرية اللبنانية